لماذا يكرهون حماس؟

تأليف
أحمد فهمي

لماذا يكرهون حماس؟

كتبه

أحمد فهمي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

«لا يوجد احتلال بدون مقاومة» هذه المقولة هي من السنن البشرية الثابتة التي قَلَّ أن يوجد لها استثناء أو شذوذ.

في نهاية القرن التاسع عشر كانت ثماني دول أوروبية هي: بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، بلجيكا، هولندا؛ قد احتلت واستعمرت في فترة جيل واحد من الزمن مساحة ٢٨ مليون وخمسمائة ألف كم مربع من الأراضي في مختلف أنحاء العالم وضمتها إلى أراضيها على نحو غير مسبوق في التاريخ العالمي[١].

وفي مواجهة الاحتلال نشأت حروب «التحرير» و «الاستقلال» وتكونت فصائل المقاومة ضد الاستعمار، وأثمر ذلك عقب عقود طويلة نَيْل أغلب الدول استقلالها بعد سنوات من التضحيات والحروب والمقاومة، وتحول قادة المقاومة في كل بلد مُحَرّر إلى رموز وأبطال تتذاكرهم الأجيال جيلاً في إثر جيل، وكان من شروط الترشح للرئاسة في الجزائر أن يكون المرشح قد شارك في حرب التحرير.

وبقيت فلسطين.. دون تحرير؛ بل تداولتها أيدي المحتلين في غيبة من العرب

---

(١) موسوعة أنواع الحروب، ص١٤٧.

بتاريخ ١٥/ ١٩٤٨/٥م، حيث انتقلت «السيادة» من المحتل البريطاني إلى المحتل الصهيوني، ولا يزال..

لم يحدث في تاريخ الاستعمار أن أسس المحتل دولة على الأراضي التي احتلها ثم أنكر حق أصحاب الأرض في تأسيس دولة لهم، كما لم يحدث أن اعترف أقوامٌ احتُلَّت أراضيهم بكيان تأسس على أرضهم ثم تعطَّف عليهم ووعدهم - وعداً ليس كوعد بلفور- بأن يعطيهم مسخاً مشوهاً يُطلق عليه (دولة) على سبيل المجاز، وأخيراً اكتشف المحتل أن أصحاب الأرض لا يستحقون هذه الدولة «المسخ».

وعلى مدى التاريخ الاستعماري كُتِبت دراسات وأُلِّفت كتب ونُشِرت أبحاث تتكلم عن دوافع الاستعمار وأسبابه وأهدافه وخططه، لكن لم يبحث أحد عن دوافع لمقاومة الاحتلال؛ لأنه لا يوجد دافع للمقاومة سوى الاحتلال نفسه، وبمجرد أن يتم التحرير يسقط عن المقاومة اسمها.

ومع تتابع العقود وكَرِّ السنين نشأ خطاب عربي استطاع أن يتكيف مع وجود الاحتلال، فلم يعده نشازاً، ولم ينظر إليه بوصفه فعلاً يستوجب ردَّ فعل، وفي المقابل نظر إلى المقاومة لا بوصفه رد فعل على الاحتلال ولكن بوصفه فعلاً ابتدائياً يحمل معنى الشذوذ و «الإرهاب»، وهنا اختل التقويم، وأصبحت المقاومة مطالبة بتقديم ذرائع لفعلها سوى ذريعة الاحتلال، وانقلبت الموازين، فأصبح عدوان الاحتلال رداً على أفعال المقاومة، وحتى يتوقف العدوان يجب أن تتوقف المقاومة ويبقى الاحتلال!

هذا النهج الذرائعي في النظر إلى العلاقة بين المقاومة والاحتلال هو نهج غير

مسبوق في المعرفة الإنسانية، وحتى الفكر الصهيوني الذي أسس دولة الكيان لم يكن «ذرائعياً» على هذا النحو «الذين أطلقوا الحركة الصهيونية وأعطوها دفعاً إلى الأمام لم يكونوا من المعتدلين الذين ينشدون التعايش السلمي مع العرب، ولكنهم كانوا قادة من ذوي المقاربات العدائية والمتشددة، لو أنه تم تبني مقاربة أكثر لطفاً ومسالمة لما وصلت الدولة إلى ما هي عليه اليوم، كان العنف الذي نشهده اليوم في مواجهات الضفة الغربية وغزة متوقعاً منذ البداية»[١].

لم يكن إسحاق رابين يفكر في ذرائع عندما دمَّر وحرق قرى عربية أثناء حرب ١٩٤٨م دون أن يفعل أهلها شيئاً، ثم قال: «كان لابد من ذلك من أجل ضمان عدم استخدامها قواعد لمهاجمة القوافل اليهودية»[٢]، ولم يكن هيرتزل يشغل نفسه بـ «الذرائع» عندما قال: «إذا حصلْتُ يوماً على مدينة القدس وكنت ما أزال حياً فلن أتوان لحظة عن إزالة كل شيء ليس مقدساً لدى اليهود فيها، وسوف أدمر كل الآثار التي مرت عليها قرون»[٣].

إن التدمير والحرق والإهانة والإذلال هي سمات لازمة لا ينفك عنها كل استعمار واحتلال، والعامل المشترك بين أغلب قوى الاستعمار هو إيقاع أكبر قدر من الأذى والإهانة بالشعوب المحتلة حتى تفقد قدرتها على الصمود. في عام ١٨٤٣م في الجزائر كتب الضابط الفرنسي مونتانياك يقول: «يجب إبادة كل من لا يأتي متذللاً تحت أقدامنا كالكلب»، ثم أحرق الجنرال بيلسييه عام ١٨٤٥م آلاف العرب خنقاً

(١) أرض الميعاد لمن؟ البروفيسور كولن تشابمان، ص٤٥٧.
(٢) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، د. صفا عبد العال، ص١٩.
(٣) السابق.

بالدخان في جبال الضهرة لأنهم لم يأتوا متذللين كـ «الكلاب»[1]، وأمام الكنيست وقف مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق قائلاً: «ما الفلسطينيون إلا حيوانات وبهائم متوحشة تمشي على قدمين»[2].

إن قصة المقاومة في فلسطين لم تبدأ من الانتفاضة الأولى، أو الانتفاضة الثانية، أو تنفيذ عمليات استشهادية، أو إطلاق الصواريخ، أو رفض تجديد التهدئة، بل تبدأ قبل كل ذلك بقليل، لقد بكى العرب طويلاً على محمد الدرة ولكنهم لم يلاحظوا أكثر من ١٢٠٠ طفلاً آخر قتلوا من بعده وحتى حرب غزة ٢٠٠٩م، كل طفل منهم يقدم ذريعة لعمل المقاومة.

إنهم يتهمون حماس بأنها جاءت بحكومة يمينية متشددة في الكيان، فهل كانت حماس موجودة عندما خسر حزب العمل لأول مرة في تاريخه أمام الليكود اليميني بزعامة مناحم بيجين عام ١٩٧٧م؟ وهل كانت حماس السبب عندما شكل بيجين حكومته الثانية عام ١٩٨١م؟ وعندما شكل إسحاق شامير الحكومة أعوام: ١٩٨٣م و١٩٨٦م و١٩٨٨م و١٩٩٠م؟ أو عندما شكل نتنياهو حكومته الأولى عام ١٩٩٦م؟

ألا يُقَدِّم الحصار المفروض على غزة ذريعة للمقاومة لتقاوم من أجل رفعه؟ هذا الحصار الذي يعدّه دوف ويسغلاس مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي «نظاماً غذائياً» على سبيل السخرية «هو - الحصار - كموعد مع خبير في التغذية، سيغدو

(١) الاستعمار الكتاب الأسود (١٦٠٠-٢٠٠٠م)، مارك فرو، ص٥٠٧.
(٢) يأتي لاحقاً في الفصل الأول.

الفلسطينيون أكثر نحولاً ولكنهم لن يموتوا»[1].

إذا كانت القاعدة تقول: إنه «لا يوجد احتلال بدون مقاومة»؛ فإن القاعدة الثانية تقول: «لا يوجد تنازلات بدون مقاومة»، وعَبْر تاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي لم يحصل العرب على مكاسب سياسية - بغض النظر عن قيمتها الحقيقية - إلا في إثر عمل عسكري، بدءاً من كامب ديفيد وانتهاء باتفاق أوسلو، وبدون المقاومة لن يجد المفاوض الفلسطيني أو العربي ما يفاوض عليه، وسيكون حواراً من طرف واحد.

إن كراهية الصهاينة لحماس مرتبطة بالمقاومة إلى حدٍّ كبير، وهذا أمر مفهوم، ولكن غير المفهوم هو رفض أطراف عربية للمقاومة وعدّها معوقاً وليس دافعاً ومحفزاً للحصول على الحقوق الفلسطينية.

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن المحددات التي ترسم العلاقة بين حماس والكيان الصهيوني، ثم المحددات التي تحكم العلاقة بين حماس وبعض الدول العربية.

والله أسأل أن يوفق في القول والعمل، ويهدينا إلى سبيل الرشاد.

أحمد فهمي

١٤٣٠/٢/٢٨هـ، ٢٠٠٩/٢/٢٣م

afahmee@hotmail.com

---

(١) سطوة إسرائيل في الولايات المتحدة، جيمس بيتراس، ص٢٧٠.

الفصل الأول:

حماس والصهاينة

مقدمة:

في تصريح للإذاعة العبرية قالت تسيبي ليفني زعيمة حزب كاديما: «حماس هي الهدف وهي العنوان لكل ما يحصل في قطاع غزة سياسياً واقتصادياً»[١]. ويقول المعلق السياسي الإسرائيلي روبيك روزنتل: «يؤيد الموقف الذي يزعم أنه ينبغي القضاء على حماس لا رؤساء المعارضة من اليمين فقط بل أجزاء كبيرة من الجمهور، وله قاعدة سياسية ذات شأن. هذا الموقف مغرٍ؛ فكل إسرائيلي ذي لبٍّ معنيٌّ بسقوط حكم حماس»[٢].

هل يكفي أن تكون حماس حركة مقاومة مسلحة لكي يصبح هدف إسقاطها هو حلم كل «إسرائيلي»؟ في الواقع هو ليس مجرد حلم، فقد تحول إسقاط حماس إلى «أيقونة» تجمع شتات اليهود في الداخل، «الرفاق يضبطون أنفسهم. العلاقات بين أولمرت ولفني تزدهر وكذا جبهة لفني - باراك استقرت. حين تكون حماس في المقابل والجنود في الداخل كل ما تبقى يتقزّم»[٣].

---

(١) ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٨م، مركز الأسرى للدراسات.
(٢) معاريف، ١/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور للدراسات.
(٣) بن كاسبيت، معاريف، ٥/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور.

لم تطل غفوة يهود، فقد أفاقوا من حلمهم في غزة ليجدوا كابوساً يرفع علماً أخضر مكتوباً عليه «حماس لا تُقهر»، وبات هدف «إسقاط حماس» مهمة عابرة للأزمنة، فقد كانت مهمةَ الجيش في السنوات الماضية، ويتوقع أن تكون كذلك في السنوات المقبلة.

نعم! حماس هي الهدف، وهي العنوان للسياسة الإسرائيلية، بل هي الهاجس الأكبر الذي يصحبهم في حلهم وترحالهم، وسواء كان الأمر متعلقا بالسياسة أو الاقتصاد أو حتى ثورة المعلومات؛ تبقى حماس ماثلة في أذهانهم. في القمة العالمية لمجتمع المعلومات (تونس نوفمبر ٢٠٠٥م) وقف وزير الخارجية الإسرائيلي سيلفان شالوم متحدثاً، لا عن إحدى التقنيات المعلوماتية الجديدة، لكن عن مواقع حماس على الإنترنت: «حالياً تُعدُّ حماس، وهي منظمة إرهابية إسلامية راديكالية كرَّست نفسها لتدمير دولة إسرائيل، تعدُّ واحدة من أنشط الجماعات الإرهابية على الشبكة، وهي تدير ما لا يقلّ عن ثمانية مواقع إنترنت بسبع لغات، وتزخر هذه المواقع بتحريضٍ معادٍ للسامية ولإسرائيل، وبدعواتٍ إلى العنف»[١].

كيف تتشكل العلاقة إذن بين حماس والكيان الصهيوني؟ وما العوامل التي تحدد طبيعة هذه العلاقة ومساراتها في الحاضر والمستقبل؟ إنه سؤال قصير، وإجابته طويلة، وهذا تفصيلها.

أولاً: التأصيل الديني للصراع:

تثور دوماً جدلية حول كنه الصراع العربي - الإسرائيلي؛ هل هو صراع ديني أم سياسي؟ ويمضي أصحاب الرأي الأخير مستشهدين بدلالات مثل القول: إن

(١) مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب ٢١/ ١١/ ٢٠٠٥م.

«إسرائيل» كيان عَلْماني، وإن موضوع الصراع هو الأرض، وإن ما يدير الصراع هو المصالح القومية للدول المعنية بالصراع إقليمياً ودولياً، وإن الطرف العربي يحتاج إلى فهم السياسة وليس فهم الدين لكي ينجح في إدارة الصراع لصالحه. . . إلخ، وهو جدل شبيه بما يثيره بعضهم حول الحروب الصليبية: هل كانت حروباً اقتصادية تحت شعار ديني، أم حروباً دينية لها أجندة اقتصادية؟

إن تفكيك هذه الجدلية مرتهن بتحديد الفرق بين أن يكون الصراع دينياً أو سياسياً، وبمعنى آخر: كيف نحكم على صراعٍ ما بأنه ديني؟

هناك أربعة محددات: الهدف، والقاعدة القِيَمِيَّة التي انطلق منها العدوان، والشعارات، ومنطلقات الحل.

محددات الصراع:

والهدف من احتلال فلسطين وتأسيس الكيان معلوم للجميع، وهو تنفيذ «موعود الله لليهود»، وكما قال ديفيد بن جوريون إبان حرب ١٩٦٧م: «لقد آمنا طوال آلاف السنين بنبوءات أنبيائنا، وإن الصهيونية تستمد وجودها من مصدر أبدي هو الوعد الإلهي»[١].

أما القاعدة القيمية فهي أن اليهود - كما يزعمون - هم شعب الله المختار على الأرض التي منحهم الله إياها؛ لذلك يعد الصهيونيون النصارى في أمريكا - يتجاوز عددهم ٤٠ مليوناً - أنه فيما يتعلق بـ«إسرائيل» هناك أربعة مفاهيم وهي: الحق الإلهي في الأرض، وتحقيق وعود الله، وأهمية دولة إسرائيل، والدعم النصراني للدولة اليهودية؛ لذلك يقولون: إن «إسرائيل هي شعب الله على الأرض، أما الكنيسة فهي شعبه في السماء. . الله عنده وسيلتان للعمل منفصلتان ولكنهما متوازيتان،

---

(١) كتاب: تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص٦١.

إحداهما: من خلال الكنيسة والثانية من خلال إسرائيل»[1].

أما الشعارات فأهمها على الإطلاق هو: عَلَم الدولة الرسمي، (وكان الرأي قد استقر مبكراً – قبل عام ١٩٤٨م – على رسم خطين من اللون الأزرق أعلى رقعة بيضاء وأسفلها وتتوسطهما نجمة داود. ويهود فلسطين فهموا الإشارة وتلقوا الرسالة فالخطان باللون الأزرق أعلى العَلَم وأسفله يشيران إلى النهرين الكبيرين اللذين تقع الأرض الموعودة بينهما؛ نهر الشرق الكبير وهو الفرات ونهر الغرب الكبير وهو النيل، وذلك نص القول في التوراة التي كتبها حاخامات إسرائيل أثناء المنفى «في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقا، لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات» (سفر التكوين ١٥: ١٨)[2]. فأي الدول في الوقت الحالي تستمد تصميم علمها ونهاية حدودها من كتابها المقدس؟

أما الحل فهو: لا يوجد حل، فقط المراوحة في المكان ومشاغلة العرب حفاظاً على المكتسبات وانتظاراً للمزيد؛ لذلك يصر الإسرائيليون على أن يبقى كيانهم بلا حدود رسمية، وهي حالة شاذة لا يوجد مثيل لها في العالم، وكل ما يحدث في المؤتمرات والمفاوضات وما يتردد عن خيار: الدولتين أو الدول الثلاث أو الدولة الواحدة هو انعكاس لعدم قدرة أي زعيم إسرائيلي على تجاوز المنطلقات الدينية في التعامل مع العرب ومع الأرض حتى لو كان زعيماً عَلْمانياً، ويكاد يكون الصراع العربي – الإسرائيلي أكثر الصراعات في العالم تكدساً بالاتفاقيات والتفاهمات والخطط وخرائط الطرق التي لا تكتمل، وفي مؤتمر أنابوليس عام ٢٠٠٧م قدمت

---

(١) انظر كتاب: أرض الميعاد لمن؟ تأليف كولن تشابمان، ص٤٧٩، ٤٩٠.

(٢) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الجزء الأول ص٢٣٣.

تسيبي ليفني مثالاً على الدبلوماسية النشطة بلا مضمون قصداً، يقول المحلل السياسي الإسرائيلي المعروف بن كاسبيت: «عملت وزيرة الخارجية على مدار الساعة مع أبو علاء وصائب عريقات على البيان المشترك. لم تفقد الأمل حتى في أقسى اللحظات، وفي النهاية انتصرت. لم يكن في هذا البيان أي شيء، ولكنه في واقع الأمر هو ما أرادته»[١].

يخشى اليمين اليهودي من تكرار تجربة الصليبيين عندما تقلصت دولتهم رويداً رويداً حتى رحل آخرهم وتلاشت الدولة، بنيامين نتنياهو يضع حلاً لذلك: مزيد من عودة يهود الدياسبورا إلى أرض الميعاد: «إن من شأن موجات هجرة جماعية أن تضع نهاية للحلم العربي برؤية دولة اليهود تنهار كدولة الصليبيين التي ظلت تصغر وتتقزم حتى تلاشت نهائياً، ستكون مثل هذه الهجرة اليهودية خطوة حاسمة نحو تحقيق السلام.. وجود ديموغرافي يهودي قوي إلى جانب السيطرة على المنطقة الجغرافية المطلوبة لضمان أمننا سيقنعان العالم العربي بأن وجود إسرائيل أصبح حقيقة تاريخية ثابتة»[٢].

يقول البروفيسور كولن تشابمان: «يصعب أن نتخيل وضعاً آخر في العالم تتشابك فيه السياسة والدين بهذا الشكل وتتمتع فيه الكتابات المقدسة بهذا التأثير العميق على العمل السياسي»[٣]، وعلى أرض الواقع يبدو التشابك بين الديني والعَلْماني في الكيان مربكاً للكثيرين الذين يخلطون بين «دينية» الدولة و«دينية» الصراع، فهم يبحثون عن دستور يقول: إن نظام الدولة ديني، أو عن حاخام يتقلد منصب رئيس الوزراء، أو

---

(١) معاريف، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٧م، مركز الأسرى.
(٢) مكان بين الأمم.. إسرائيل والعالم، بنيامين نتنياهو، ص٣٣٠.
(٣) أرض الميعاد لمن؟ ص٥٢٨.

عن شعب يقضي وقته بين حائط المبكى والمعبد، وتغيب عنهم مؤشرات كثيرة تثبت بلا جدال أن الصراع بين الإسرائيليين والعرب هو صراع ديني، وهذه بعضها:

استخدم الصهاينة وحتى الملاحدة منهم مقولات دينية (فالمؤسس هيرتزل لم يكن متديناً بل كان في بداية حياته من دعاة الانصهار في المجتمعات الأوروبية، حتى إنه لم يهتم بختان ابنه حسب الشريعة اليهودية، وكان يعرِّف نفسه بوصفه مفكراً حراً ويؤمن أن لكل إنسان أن يبحث عن خلاصه بطريقته، وعلى شاكلته كان معظم قادة الحركة الصهيونية ومنظريها، أمثال: إيهود بينسكر الروسي زعيم جماعة أحباء صهيون، وموسى هيس وماكس نوردو الذي كان يجاهر بإلحاده، وحاييم وايزمان خليفة هيرتزل (١٨٦٤ - ١٩٥٢م) الذي كان يتلذذ في مضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعاً، ونجد ذلك لدى قيادات إسرائيلية كثيرة معاصرة مثل: شيمون بيريز رئيس الدولة الصهيونية الحالي ورئيس حزب العمل السابق الذي كان لا يتردد في السخرية من أنبياء اليهود ووصفهم بأبشع الصفات أمام الإعلام، في وقت يلتزم فيه بالشعارات الصهيونية الاستيطانية، إلا أن المفكر الصهيوني رغم إلحاده يعد نفسه «مقدساً»، وقد حاول المفكر الصهيوني كلتسكين توضيح الأمر فقال: إن اليهودية تعتمد على الشكل لا على المضمون، وهذا الشكل الأساسي - كما يقول - هو تخليص الشعب اليهودي للأرض، أما المضامين الروحية والفكرية فهي تختلف بشكل راديكالي، وهذا لا يهم..)[1].

ويطرح تساؤل حول كيفية تحقق «النظام الإلهي» في «إسرائيل» بينما الدولة عَلْمانية؛ أي غير دينية؟ يقدم مفكر نصراني صهيوني حلاً للمعضلة فيقول: «أرى

---

(١) إسرائيل.. الرؤساء، ص٢٠.

في كل مكان من الكتاب المقدس نبوءات تتعلق بإعادة النظام الإلهي إلى إسرائيل، قد نتساءل: كيف يحصل هذا في إسرائيل الحديثة وهي دولة عَلْمانية؟ إن الله هو الذي سيحل المشكلة، هل يمكن أن يطرد الله اليهود من الأرض من جديد بسبب إثمهم؟ كلا لن يحدث هذا مرة أخرى، ما سيحصل في المستقبل هو العودة والاستعادة الروحيتان وهو ما يحصل الآن، نحن المسيحيين الصهيونيين نعلن ملكوت الله، يوماً ما سيرى الجميع إسرائيل الروحية من جديد»[1]، إذن لا توجد مشكلة، عندما يحين الوقت سوف ينقلب اليهود إلى ملتزمين متدينين، أما فيما قبل فلا تثريب.

من المؤشرات الأخرى ظاهرة الأحزاب الدينية، وهي كثيرة متفاوتة الحجم والتأثير، ومنها: شاس (حماة التوراة)، أجودات إسرائيل (وحدة أرض إسرائيل)، المفدال، ديجل هاتوراه (لواء التوراة).. إلخ. (وقد نجحت هذه الأحزاب في فرض طابعها وتوجهاتها على الحياة العامة والسياسية في الكيان متداخلة مع الطابع العَلْماني، وبما يتجاوز حجمها الجماهيري بكثير، فعلى مستوى الحياة العامة: تتوقف المواصلات العامة يوم السبت، ولكن يمكن استخدام السيارات الخاصة أو التاكسيات، وتغلق الشوارع في الأحياء الأخرى التي تقطنها أغلبية متدينة، وتترك مفتوحة في الأحياء الأخرى، أما أمور الزواج والطلاق فيسيطر عليها المتدينون، وقد تم الاعتراف بالتعليم الديني المستقل، وهو ما يعني أن الدولة عليها أن تموله، ولا تعرض أفلاماً سينمائية ابتداء من مساء الجمعة، وإن كان يصرح بلعب كرة القدم يوم السبت على أن تباع التذاكر في اليوم السابق)[2].

---

(١) ديفيد باوسون ١٩٨٥م. أرض الميعاد لمن؟ ص٤٨٣.
(٢) مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي... د. عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، ص١٦١.

(وعلى المستوى السياسي يمتلك التيار الديني القدرة على التحكم في رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات، ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته، وهم يستأثرون بـوزارات المستقبل «التعليم - الإسكـان - الأراضـي - المهـاجرون - الأديـان»، وهناك حاخامية عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكري والديني داخل القوات المسلحة، وهي تباشر كل شؤون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين وتشرف على المدارس العسكرية الدينية وتخرج أجيالاً مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتاوى التي تضفي القداسة على الممارسات والجرائم التي يرتكبها الجنود ضد العرب)[1].

وتلعب الأحزاب الدينية دوراً مركزياً بين أحزاب اليسار مثل «العمل» وأحزاب اليمين مثل «الليكود»، هذا الدور «ليس نقطة بين طرفين متصارعين أو متناقضين، بقدر ما هو مركز الثقل في المعادلة السياسية الصهيونية، وباتجاهين متداخلين؛ أولاً: نهاية المسار الحزبي العمالي، تلتقي مع المسار الحزبي الديني، ثانياً: بداية المسار الحزبي اليميني، تلتقي مع المسار الحزبي الديني»[2].

ومن الطريف فيما يتعلق بسمات التدين «العجيب» لدى السياسيين الدينيين الإسرائيليين أن المجلس الوزاري اجتمع يوم الجمعة لمناقشة الحرب على غزة واستمر النقاش حتى الساعة الخامسة مساء، فغادر الوزراء «المتدينون» الجلسة وتركوا تصويتهم في بطاقة حتى لا «يدنسوا» يوم السبت، بينما لم يجدوا أدنى حرج «شرعي» في تدمير

---

(١) السابق، ص١٦٤.

(٢) كتاب: السيف الأحمر، دراسة في الأصولية الصهيونية المعاصرة، د. جمال البدري، ص١٤٦.

القطاع في اليوم نفسه[١].

ومن المؤشرات أيضاً ما يحملونه من إرث قديم متجدد تجاه المسلمين، يقول تشابمان: «وإذا تساءلنا حول أجوبتنا كمسيحيين على طموحات اليهود والمسلمين يقال لنا: إن اليهودية تشهد الآن فداء الأرض وإن الإسلام قوة فاسدة لا بل شيطانية تسعى لإبادة شعب الله المختار»[٢]. وحذر رئيس الكيان السابق إبراهام بورغ في تصريح لإذاعة الجيش من وجود حملة «تدعو إلى محو المقدسات الإسلامية بالقدس وتحويل إسرائيل إلى دولة شريعة»[٣]؛ أي: شريعة التوراة.

ويروي الشيخ عبد الحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني السابق، والقاضي الشرعي السابق؛ قصة ذات مغزى، خلاصتها أن حاييم هيرتزوج رئيس الكيان الصهيوني إبان حكم الملك فيصل هدد زوجة مفتي الشافعية بأن تترك بيتها المجاور للأقصى وتسلمهم الزاوية الفخرية القريبة من باب المغاربة، وبعدما اضطرت للرحيل، سألها هيرتزوج: «أين تذهبين؟ فقالت له: أنا أذهب إلى السعودية، وكان ذلك قبل وفاة المرحوم الملك فيصل، فقال لها: أتريدين فيصل؟ قالت: لا سأذهب إلى أولادي، قال لها: اذهبي إلى فيصل وأخبريه أن لنا عنده أمانة يجب أن تعود إلينا، قالت: ما هي هذه الأمانة؟ قال لها: ألا تعرفين أن الكعبة بناها أبونا إبراهيم.. الكعبة لنا وسنأتي لنأخذها»[٤].

---

(١) يديعوت أحرونوت، شيمعون شيفر، ٤/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور.
(٢) أرض الميعاد لمن؟ ص٤٩٣.
(٣) مركز الأسرى ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٧م، يصنف بورغ بأنه معتدل إن كان يصح القول: إنه يوجد يهودي معتدل.
(٤) فلسطين.. لا صلاة تحت الحراب، مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح، ص١٢١.

كان المتدينون غالباً ما يرفضون دخول الجيش الصهيوني بحجة التفرغ لدراسة التوراة في المدارس الدينية وتولي مهمة الحفاظ على الدين اليهودي «حياً»، ولكن في الآونة الأخيرة لوحظ تزايد في نسبة المتدينين الملتحقين بالقوات المسلحة على نحو أثار حفيظة قادة الجيش، وذكرت يديعوت أحرونوت أنه لا يوجد أحد في قيادة الجيش يجرؤ على التحقيق في هذه الظاهرة وأبعادها، وأن هؤلاء المتدينين ينظرون إلى الجيش على أنه أداة لا تقل أهمية عن التوراة في تنفيذ الوعد الإلهي في أرض «إسرائيل»، وغالبيتهم ينتمون إلى حزب المفدال، وقد تمردوا على قادتهم عندما أُمِروا بإخلاء المغتصبات في غزة أثناء الانسحاب أحادي الجانب عام ٢٠٠٥م، ويبدي هؤلاء الجنود حماسة كبيرة في قتال الفلسطينيين، حيث تذكر آخر الاستطلاعات أن نسبتهم في المجتمع حوالي ٧٪، إلا أنهم يشكلون أكثر من ١٠٪ من ضباط الجيش حالياً، ويمثلون أكثر من ١٥٪ في الوحدات القتالية[١].

هذا التدين المتفشي في جنبات الدولة يرفع من مستوى العدوانية والكراهية من قبل المتدينين في مواجهة المقاومة الإسلامية بقيادة حماس. وفي الحرب الأخيرة على غزة بشَّر الحاخام عوفاديا يوسف - الزعيم الروحي لحزب شاس - أتباعه بهذه القصة: «وصل الجنود إلى منزل وأرادوا الدخول إليه، وكان هناك ثلاثة من حماس في الداخل ينتظرون، لكنْ ظهرت امرأة جميلة شابّة أمامهم وحذّرتهم بألاّ يدخلوا البيت حيث يوجد فيه (إرهابيّون) وسألها الجنود: من أنت؟ همست: أنا راحيل[٢]، ولاحقاً تبيّن فعلاً وجود مقاتلين من حماس في البيت»[٣].

---

(١) انظر: صحيفة القدس الفلسطينية ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٨م.

(٢) زوجة يعقوب عليه السلام كما يعتقد اليهود.

(٣) موقع الأوان ٢٨/ ١/ ٢٠٠٩م.

ولم تتوقف «راحيل» عن التجول في غزة لتكشف متفجرات حماس وكمائنها كما ذكرت يديعوت أحرونوت، وحتى لا يتصور بعضهم أنها شائعات قدَّم موردخاي إلياهو الحاخام الأكبر الشرقيّ لإسرائيل تأكيداً وتفسيراً لهذه القصة، فقال: إنه «صلّى عدّة مرّات منذ وقت قريب على قبر راحيل، داعياً لحماية الجنود، وعندما سُئِل عن الشائعة قال: هذا صحيح أنا أرسلتها»[1].

وأعدَّ حاخام آخر كتيباً دينياً وقام بتوزيعه على الجنود أثناء عدوانهم على غزة يدفعهم إلى مزيد من الدموية، وشمل الكتيب نصوصاً للحاخام المتطرف شلومو أفينير دعت إلى انتهاج الوحشية والدموية وإظهار القسوة أثناء القتال، وشمل تحذيراً من مغبة التخلي عن شبر من أرض «إسرائيل»[2].

أحدث المؤشرات التي تثبت البعد الديني في الصراع الفلسطيني مع الكيان؛ استطلاع للرأي أجراه الباحثان سكوت أتران وجيرمي جينجز ضمن دراسة بعنوان «كيف يمكن للكلمات أن تنهي الحرب» نشرتها صحيفة نيويورك تايمز، وقال الباحثان: إن الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي ديني النزعة، وتسيطر عليه أيديولوجيات دينية متعددة تعتنقها قيادات الجانبين وتؤمن بها، وتدير هذا الصراع وفقاً لها. وكشفت نتائج الاستطلاع الذي أجرياه على ٤٠٠٠ فلسطيني وصهيوني من بينهم قيادات سياسية بين عامي ٢٠٠٤ - ٢٠٠٨م؛ أن هناك قيماً مقدسة تحكم الصراع، فعلى سبيل المثال: أوضح قرابة نصف المستوطنين الذين خضعوا للاستبيان؛ رفضهم لفقدان أرض من الضفة الغربية - التي يعدّونها منحة إلهية - في مقابل السلام، كما

---

(١) السابق.

(٢) فضائية الجزيرة، صحافة المنتصف، ٨/ ٢/ ٢٠٠٩م.

أكد نصف الفلسطينيين الذين شملهم الاستبيان على حتمية السيطرة الكاملة على القدس التي تضم المسجد الأقصى[1].

ثانياً: العداء والاحتقار للعرب والمسلمين:

يدفع بعض المحللين إلى القول: إن الاضطهاد الذي تعرض له اليهود على مرِّ القرون في كل مكان وزمان يحلون به أدى إلى تراكم العقد النفسية في تكوين الشخصية اليهودية. ويخصون بالذكر الاضطهاد الذي واجهوه من النصارى منذ القدم، (وكان أسقف روما الذي أصبح سيد «الأنفس» في أوروبا منذ القرن الرابع قد وضع علامة الخيانة على اسم كل يهودي في المناطق الخاضعة له أو في أي مكان آخر، وأراد أن تبقى هذه اللطخة على الأولاد وأولاد الأولاد في بيت إسرائيل، وبسبب وصمة العار هذه سهل على المسيحيين لألف وخمسمائة سنة أن يتعاطوا مع اليهود وكأنهم من غير الكائنات)[2]، وكتب أغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠م) يقول: «لا يستطيع اليهود أبداً أن يفهموا الكتابات المقدسة على نحو روحي وسيحملون إلى الأبد ذنب موت يسوع لأن آباءهم قتلوا المخلص»[3]، ويقول توما الإكويني: «من الجائز شرعاً الإبقاء على اليهود في عبودية دائمة لأنهم صلبوا الرب»[4].

ولذلك أشار المفكر اليهودي (و. براون) عام ١٩١٩م إلى السخرية الكامنة في أن كثيرين من اليهود قدموا للعرب المعاملة نفسها التي عانوا هم منها في أوروبا «نحن الذين نتعرض للاضطهاد في كل العالم ونطالب لأنفسنا بكل الحقوق الإنسانية نذهب

---

(١) تقرير واشنطن، ١٤/ ٢/ ٢٠٠٩م.
(٢) أرض الميعاد لمن؟ ص٧٦.
(٣) السابق، ص٧٧.
(٤) السابق، ص٧٨.

إلى فلسطين لنقلب الأدوار»[١].

تحليل آخر:

لكن التحليل السابق لا يقنع المسلمين، فعداء اليهود لهم يمتد إلى ما قبل ذلك بمئات السنين وقبل أن يوجد لهم ذكر في فلسطين.

للعداء مظاهر كثيرة، ومنها: الاحتقار:

يضع اليهودُ العربَ ضمن من يسمونهم «الجوييم» أي: الأغيار - غير اليهود - يستوي في ذلك عرب ٤٨ أو ٦٧، لا فرق. وعشية انعقاد مؤتمر أنابوليس أعلن حاخام كريات أربع: دوف ليئور - الذي يشغل أيضاً منصب رئيس «اتحاد الحاخامين من أجل أرض إسرائيل» - بأنه «ينبغي تنظيف البلاد من العرب وإعادتهم إلى بلدانهم الأصلية. إذا كان هذا يعني أنه ينبغي أن ندفع لهم سنفعل هذا أيضاً وسنخرجهم من هنا، دون هذا لن يحل الهدوء في بلادنا»[٢].

وفي الفترة ما بين ١٩٦٧م وعام ١٩٩٣م عقب توقيع اتفاق أوسلو كانت أجهزة الأمن تعامل الفلسطينيين في الأراضي المحتلة كما لو كانوا عبيداً، و «أصبح رجل الأمن العام المعروف باسم (شابا كنك) مِلكاً لهذه الأراضي، إذ خصصت السلطات الإسرائيلية لكل عميل من هؤلاء العملاء - أو لنقل (الأسياد) - مساحة من الأرض أمست فيما بعد (مقاطعة) له، على أن يتولى مسؤولية معرفة كل ما يدور في هذه المساحة التي تضم عادة قرية أو أكثر من قرى قطاع غزة والضفة الغربية، وهكذا لم يعد بمقدور الفلسطيني الدخول أو الخروج من المقاطعة التي ينتسب إليها دون معرفة

---

(١) السابق، ص٣٥٦.

(٢) يديعوت أحرونوت، مركز الأسرى ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

سيده (الشابا كنك) وموافقته، والذي اختار مخبرين له من بين تابعيه ليحيطوه علماً بالذي يدور حوله، فإذا أراد فلسطيني ما أن يحصل على إجازة بناء فعليه أن ينتظر سيده ليبتَّ في الأمر، وإذا ما رغب تاجر فلسطيني أن يصدِّر البرتقال من غزة أو زيت الزيتون من نابلس فعليه أن يحصل على موافقة مديرية الأمن العام»[1].

و ألَّف أوري سفير - الذي ترأس وفد المفاوضين الصهاينة في مباحثات أوسلو - كتاباً بعنوان «العملية»، قال فيه: «إن صورتنا الذاتية عن أنفسنا بوصفنا مجتمعاً إنسانياً وضحية أبدية في التاريخ، إضافة إلى عداء العرب؛ أعمت عيوننا عما كان يجري في البلاد. إن ما اكتشفته - خلال المحادثات - أن فلسطينياً من الضفة الغربية لا يستطيع أن يبني ويعمل ويدرس ويبتاع الأراضي وينتج المحاصيل ويمارس الأعمال ويتنزه ليلاً ويدخل إسرائيل ويسافر خارجاً ويزور عائلته في غزة أو الأردن من دون تصريح منا.. إن معظم السكان يتلقون الإهانات منا»[2]. ولم يتغير شيء بالطبع بعدما كتبه سفير؛ فلا يزال الفلسطينيون يتعرضون للمستوى نفسه من الاحتقار والإهانة في كل موطن يجتمعون فيه مع اليهود.

ومنها: إطلاق أبشع الصفات والتهم:

لا يدخر اليهود وسعاً في إطلاق أقسى الأوصاف والسباب على العرب والمسلمين حتى في مقررات التعليم الرسمية التي يتربى عليها أجيالهم الجديدة «المُحبة للسلام» كما يرى بعض العرب، (ومن الصفات التي تتردد بكثرة في مقررات التاريخ والجغرافيا: بيت الزواحف العربية - العرب اللصوص والمختلسون الإرهابيون -

(١) الإسرائيليون الجدد، ص٢٠٧.
(٢) كتاب: فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، كاثلين كريستسن، ص٤١٩.

العرب اللصوص والزائرون والكلاب - العرب اللصوص والمتوحشون - العرب الأنذال - العرب قطاع الطرق اللصوص - العرب البدو المتخلفون - المسلمون الفقراء الذين يعطف عليهم اليهود - العرب الخونة، ويكاد يكون وصف «اللصوص» متكرراً مع كل نعت آخر)[١].

ولا يقتصر «سب» العرب على التعليم فقط، فهو كثيراً ما يتردد على ألسنة الساسة ورجال الدين، وكان هيرتزل أول من أطلق تعبير الأفاعي على العرب حينما قام بالتفاوض مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني - رحمه الله - بشأن إعطاء فلسطين لليهود لتكون موطناً قومياً لهم، وحينما رفض السلطان طلبه استشاط هيرتزل غضباً، وقال لاحقاً: «عبد الحميد الثاني رمز لمجموعة من أحط الخبثاء تحيط به مجموعة من العرب اللصوص وهذه العصابة ليست إلا مجموعة من الأفاعي السامة»[٢]. وفي خطاب أمام الكنيست قال مناحيم بيجين رئيس الوزراء الذي وقع اتفاقية كامب ديفيد مع مصر: «ما الفلسطينيون إلا بهائم وحيوانات متوحشة تمشي على قدمين»[٣].

ويأتي الحاخام عوفاديا يوسف - فاز حزبه في انتخابات ٢٠٠٩م بـ ١١ مقعداً - في مقدمة كارهي العرب وشاتميهم، ففي مارس عام ١٩٩٣م نظمت حركة شاس تظاهرة احتجاجية ضد تدهور الوضع الأمني، وانتهز عوفاديا يوسف المناسبة ليعطي الحضور درساً صغيراً حول العربي، فقال: «لا يوجد حيوان أردأ من العرب، إنهم كالحيوانات وعليهم قيل (إنه رجل برية يده بالجميع ويد الجميع به)»[٤].

---

(١) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص٣٣.
(٢) السابق، ص٤٢.
(٣) السابق، ص٧٤.
(٤) الحريديون والمجتمع والسياسة في إسرائيل، ص٣٤.

وفي عام ٢٠٠١م دعا حكومة أريئيل شارون إلى «إبادة العرب بالصواريخ وتطهير أرض إسرائيل من هؤلاء الصراصير والحشرات القذرة»، وفي العام نفسه وصف العرب بأنهم: «يتكاثرون كالنمل في القدس القديمة.. تباً لهم فليذهبوا إلى الجحيم». وفي السياق نفسه وصف نسيم دهان - من شاس أيضاً - عندما كان وزيراً للصحة؛ المصلين المسلمين في الحرم القدسي بأنهم: «ثعالب ارتقوا تدريجياً والآن هم أفاعٍ وعقارب»، كما أضاف: «إن المسلمين يتجولون اليوم بصورة آمنة في القدس ويشكلون خطراً علينا، ولكننا سنشهد في المستقبل أياماً أفضل وسنعرف من هم الأسياد ومن هم العبيد»[١].

ومنها: الادعاء بأن فلسطين أرض بلا شعب:

مقولة هيرتزل الشهيرة: إن فلسطين أرض بلا شعب يأخذها شعب بلا أرض؛ كانت أساساً لدعوته إلى إقامة مشروع الدولة اليهودية على أرض فلسطين، لكن أصواتاً كثيرة بين يهود أوروبا أخذت تشكك في إمكانية إقامة الدولة، وبدأت تظهر مقترحات لإقامته في أماكن بديلة مثل: الأرجنتين أو أوغندا، ورغبة في إقناع الحاخامات الأوربيين المتشككين قام ماكس نوردو أحد أصدقاء هيرتزل المقربين بإرسال اثنين منهم إلى فلسطين ليريانها رأي العين ثم يعودان ليحدثا زملاءهما عنها وعن حقائق الأحوال فيها؛ سواء بالنسبة لسكانها الأصليين أو بالنسبة للمستوطنين اليهود، وبالفعل فإن الحاخامين سافرا إلى فلسطين، لكن ما رأياه كان صدمة لهما، وكانت أول إشارة إلى الصدمة برقية تلقاها نوردو منهما وهما بعد في فلسطين يقولان فيها بالرمز: «إن العروس جميلة جداً، وهي مستوفية لجميع الشروط لكنها متزوجة

---

(١) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص٤٣.

فعلاً»، وفهم نوردو الإشارة على أن المقصود بها أن في فلسطين شعباً يسكنها وأنها ليست كما يقول هيرتزل أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض[١].

على النهج نفسه تطفح أقوال حاييم وايزمان - خليفة هيرتزل - بالإنكار الاحتقاري للوجود العربي، إذ تلَقَّى سؤالاً من عالم الفيزياء اليهودي ألبرت أينشتاين يقول فيه: «ماذا سيحل بالعرب إذا ما أعطيت فلسطين لليهود؟» فأجاب وايزمان بقوله: «من هم هؤلاء العرب الذين تتحدث عنهم؟ من المشكوك فيه أن تكون لهم أدنى أهمية»[٢]، ويقول البروفيسور تشابمان في كتابه المهم «أرض الميعاد لمن؟»: «يبقى عدم الاعتراف بالفلسطينيين إلى اليوم العقيدة الأساسية لصانعي السياسة في إسرائيل الذين في القيادة الصهيونية قبل ١٩٤٨م يغلب عليهم الوهم بأن المشكلة القومية الفلسطينية اختفت مع قيام دولة الأردن تاركين مشكلة واحدة متبقية برسم الحل وهي مشكلة اللاجئين الإنسانية»[٣]. ويحاول صانعو السياسة هؤلاء ترسيخ فكرة أن مشكلة الفلسطينيين بوصفهم شعباً قد حُلت مع خروج اللاجئين: «لم يكن هناك شعب فلسطيني في فلسطين يعدُّ نفسه شعباً فلسطينياً، أتينا نحن وأخرجناه وسلبناه بلده فهو ليس بموجود مطلقاً»[٤]، وهذا يفسر إلى حد بعيد لماذا تملكت اليهود إبان تأسيس الكيان عام ١٩٤٨م رغبة عارمة في طرد أكبر عدد من العرب عشية التأسيس وفي أعقابه، لقد كانت صورة الدولة «الحلم» لديهم تتمثل في دولة يهودية خالصة، يقول بن جوريون: «إسرائيل هي وطن اليهود واليهود وحدهم»[٥].

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الجزء الأول، ص٧٢ - ٧٣.
(٢) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص٤٨.
(٣) أرض الميعاد لمن؟ ص ٣٥٧ - ٣٥٨.
(٤) السابق، ص٣٥٩.
(٥) السابق.

بذل بن جوريون جهداً خارقاً لتحقيق مقولة هيرتزل، ووضع خطة أطلق عليها اسم «دالت» تهدف إلى «تنقية» فلسطين من العرب، يقول المؤرخ اليهودي بني موريس: «جوهر خطة دالت كان تطهير أراضي الدولة اليهودية العتيدة من جميع القوى المعادية فعلاً أو افتراضاً»[1]، وهذا يعني أن رفع الراية البيضاء لن يجدي طالما أن العربي الذي يرفعها اليوم يُفترض به القتال غداً، وقد اشتكى عدد من مخاتير القرى في النقب إلى بن جوريون نفسه من أن البدو ظلوا على الحياد في القتال ومع ذلك فإن الجيش الصهيوني «يدمر المنازل ويسرق الغنم والمواشي والجياد ويحرق الحقول» فلم يُعرهم التفاتاً[2].

وكانت الأوامر في كثير من المناطق تصدر لقادة الألوية بـ «قتل كل عربي بالغ يُصادف»، وبإضرام النار في «كل الأهداف الممكن إحراقها بواسطة القنابل الحارقة» كما حدث في مدينة حيفا التي كان عدد سكانها ٧٠,٠٠٠ ولم يبق منهم بعد الحرب إلا ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ فلسطيني[3]، وفي شمال لبنان أصدر العميد موشيه كرمل الأوامر إلى قادته بـ «قتل جميع الرجال وتدمير وإحراق القرى»[4]، وكان من المعتاد أن يستخدم القادة السياسيون والعسكريون ألفاظ «التنظيف» و «التطهير» في توصيف أعمالهم الوحشية، وتكررت في كل فلسطين ٤٨ مذابح مشابهة لما حدث في دير ياسين.

وفي عشرة أيام فقط من عام ١٩٤٨م طرد اليهود مائة ألف فلسطيني، وفي أقل

---

(١) خطيئة إسرائيل الكبرى، ص٥٨.
(٢) السابق، ص٦٩.
(٣) السابق، ص٦٠ – ٦١.
(٤) السابق، ص٦٢.

من عام طردوا ٧٠٠ ألف فلسطيني. وفي حادثة معبرة وقعت أثناء القتال كان من المعتاد أن تصدر الأوامر الرسمية من وزارة الدفاع بحظر طرد السكان وقتلهم، بينما تصدر الأوامر ضمناً بفعل كل ما يمكنهم من ذلك، وفي إحدى المرات تلقى الجنرال حاييم لاسكوف - وكان يشرف على احتلال الناصرة - هذا الأمر الرسمي ويبدو أنه كان ساذجاً فالتزم به، وعندما قدم بن جوريون لاحقاً للتفتيش رأى عرباً كثيرين في المدينة فاستشاط غضباً وقال للجنرال: «ماذا يفعلون هنا؟»[١].

كان بن جوريون شخصية ملتوية يتمتع بقدر كبير من الخبث والدهاء، وكان يحرص على ألا تصدر أي أوامر بالقتل أو التدمير بصورة رسمية ورقية من خلاله، وفي إحدى جولات التفتيش التي كان يقوم بها في أرجاء فلسطين وصل إلى مدينة يافا وهي مقفرة من سكانها خاوية على عروشها، بعد أن قصفتها عصابة الأرجون بوحشية، وقف بن جوريون معلقاً بكل براءة: «لا أفهم لماذا غادر سكان يافا؟»[٢].

ومنها: إن كان هناك شعب فهو لا يستحق دولة:

يعتقد الإسرائيليون أن الشعب الفلسطيني شعب بلا حضارة بدوي متخلف لم يكن ليؤسس دولة ولا مؤسسات لولا دولة «إسرائيل»، يقول جلعاد شارون ابن رئيس الوزراء السابق: «لو لم تكن دولة إسرائيل لما قامت هنا دولة فلسطينية كما لم تتمكن من القيام في الماضي أيضاً؛ مصر كانت ستزحف قليلاً نحو الشمال وسورية كانت ستنزل قليلاً نحو الجنوب وتنتهي الحكاية»[٣].

---

(١) السابق، ص١٤٨.
(٢) السابق، ص١٤٤.
(٣) هآرتس، مقال: زغب الصوص لن يتحول إلى فروة أسد، مركز الأسرى، ٣/ ٧/ ٢٠٠٧م.

الرؤية نفسها التي تقول: إن الفلسطينيين «زغب صوص» يتبناها مؤرخون يهود كثر، ومنهم صموئيل كاتس، حيث يقول: «لم يكن ثمة قط أمة عربية فلسطينية، ولم يوجد عند الشعب العربي بكامله كيان اسمه فلسطين.. ربما كان للقلائل الذين كانوا يعيشون ضمن حدودها صلة بقريتهم (ما كان يجعلهم يشنون الحرب على القرية المجاورة) أو بعشيرتهم (التي كانت تقاتل في سبيل حصولها على حق جباية الضرائب المحلية).. لم يكونوا على وعي لأي علاقة بالأرض، حتى إن سكان المدن لم يسمعوا عن وجود أرض إلا من يهود..»[١].

هذه الرؤية تكمن خطورتها في أنها تنسف أي احتمالية لقبول الصهاينة بتأسيس دولة فلسطينية كاملة السيادة على الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م، وبتعبير جلعاد شارون فلن يتحول الفلسطينيون إلى «فروة أسد»، ولأن اليهود لا فارق لديهم بين: حقيقة مثبتة، وباطل يسعون لجعله حقاً؛ فإنهم يتحركون في ثلاثة اتجاهات، الأول: يفاوض العرب - أو يلاعبهم - حول دولة فلسطينية، والثاني: يؤكدون من خلاله - ويسعون لذلك عملياً - على أن الفلسطينيين ليسوا مؤهلين لإقامة دولة، يقول شلومو أفنيري: «النظر في التاريخ الفلسطيني يشير إلى إخفاق بنيوي أعمق، يصاحبه على امتداد تاريخه كله عدم القدرة على إقامة مؤسسات تقوم على إجماع وطني وقادرة على أن تكون أساساً للدولة... إن ما نراه الآن في غزة - عدم قدرة الفصيلين الفلسطينيين على إقامة إطار مشترك - ليس سوى تكرار لهذا الإخفاق الفلسطيني التاريخي»[٢].

---

(١) أرض الميعاد لمن؟ ص٣٥٩.

(٢) هآرتس، مركز الأسرى، ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٧م.

الاتجاه الثالث: يؤكد على أن «أرض إسرائيل» كلها مقدس لا يجوز التفريط فيه، وتتبنى الأحزاب الدينية هذا التوجه، وإبّان المرحلة الثانية من إعادة الانتشار عام ١٩٩٨م أصدرت أجودات إسرائيل بياناً قالت فيه: «يتم الآن التخلي في أرض إسرائيل المقدسة عن أمن وحياة اليهود ووضعها تحت رحمة أشرار وظلام من سريين وعلنيين، ليمح الله اسمهم»[١].

مع تصاعد المقاومة وتتابع أشكالها وأنماطها بدأت النظرة الإسرائيلية إلى العرب تتحول تدريجياً، ليس في اتجاه الاعتدال، ولكن بإضافة الخوف والفزع إلى العداء والكراهية، وأصبح طرفا «الكماشة» العربية: عرب ٤٨ وعرب ٦٧ أمراً يزعجهم إلى الدرجة القصوى، وهذا ما أفسح المجال لبروز قيادات يمينية جديدة أكثر تطرفاً ضد العرب، وفي مقدمتهم بالطبع أفجيدور ليبرمان زعيم حزب «إسرائيل بيتنا»، يقول عنه المعلق السياسي في هآرتس ألوف بن: «ليبرمان جاء بابتكار أكثر وضوحاً من نتنياهو: أنا بلطجي أزعر وأكره العرب»[٢]، هذه «البلطجة» السياسية مطلوبة حالياً في أوساط المجتمع الإسرائيلي الذي تعب من التصريحات الملتوية والسياسات الضبابية، إنهم يريدون سياسة أكثر وضوحاً مع العرب، بمعنى آخر: أكثر حدة وعنفاً، «إن الإسرائيليين المغمورين بالخوف يرون في ليبرمان الفزّاعة التي يريدون وضعها في وسط الملعب السياسي، على أمل أن العرب هم العصافير، يرونها فيفزعون»[٣].

على أن إمكانيات ليبرمان في «إفزاع» العرب في حالتهم الجديدة المتماهية مع المقاومة تراجعت حظوظها، وهذا ما ألمح إليه إيهود باراك، الذي يفاخر ليبرمان

---

(١) الحريديون والمجتمع والسياسة في إسرائيل، ص٣٤ - ٣٥.
(٢) موقع عرب ٤٨، ٧/ ٢/ ٢٠٠٩م.
(٣) ناحوم برنياع، يديعوت أحرونوت، ٧/ ٢/ ٢٠٠٩م.

ويسخر منه بأنه «لم يحمل مرة السلاح ويطلق النار على العرب كما فعل هو كثيراً»[١]، غاية ما هناك أن ليبرمان يُستخدم بوصفه قناعاً مخيفاً يدفعونه في وجه الفلسطينيين: «إذا واصلتم على هذا النحو فنحن أيضاً سنعرف كيف نكسر الأواني.. ليبرمان هو بطاقتنا الصفراء للعرب»[٢].

ثالثاً: القوة هي الخيار الإستراتيجي الأول:

القوة في العقلية الصهيونية هي خيار إستراتيجي وليست خياراً ظرفياً تحكمه العوامل الطارئة، والتيار السائد داخل الصهيونية كان ينظر إلى القوة بوصفها من الثوابت الدائمة، ولم يستعملوها رغماً عنهم بل كانت ملازمة لأهدافهم وخططهم، وكانوا يعلمون أن كل مبادئهم ودعاواهم الدينية لن تقيم لهم دولة، يقول المفكر الصهيوني جودا ماغنيس: «إن شعار الدولة اليهودية مساوٍ في الحقيقة لإعلان حرب من اليهود على العرب»[٣].

في بداية تأسيس الكيان كان الصهاينة قد وضعوا الخطوط العامة للدولة، وراحوا يرسمون حدودها «حدود للدولة: تتمدد باستمرار مع مدى ما تصل إليه قوة جيشها وهو تعبير بن جوريون، وحدود للأمن: تتسع بعد ذلك أكثر لتشمل التصدي لأي خطر يهدد أمنها مستقبلاً سواء كان ذلك الخطر قريباً من حدودها القائمة أو بعيداً عنها، وحدود للمصلحة: تتطلع إلى موارد البترول ومصادر المياه وأسواق التجارة وخطوط المواصلات وحرية الانتقال والسفر»[٤].

---

(١) السابق.
(٢) الكاتبة سيما كدمون، عرب ٤٨، ٧/ ٢/ ٢٠٠٩م.
(٣) أرض الميعاد لمن؟ ص٤٥٦.
(٤) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الجزء الأول، ص٢٢٣.

هذه الحدود «غير المحدودة» تفتقر إلى قوة هائلة لتطبيقها على الواقع، ولحمايتها أيضاً، وكان الصهاينة يعلمون أنهم يواجهون صراعاً مع الزمن والديموغرافيا والجغرافيا والسياسة والثقافة والدين، وأن مجرد الاستخدام العادي للقوة لن يكفي، بل لابد من التفرقة بين حيازة أقوى عتاد عسكري متاح، وبين استخدام هذا العتاد بأقسى طريقة ممكنة، وكلا الأمرين كان مطلوباً. . . باختصار كان الهدف إيجاد حالة فزع وإرهاب واسعة النطاق توفر للكيان الصهيوني مجالاً زمنياً آمناً لفترة كافية من الوقت.

ليس سهلاً أن يتم استئصال شعب من أرضه مع ثقافته وتراثه وحضارته ووضع شعب آخر مكانه، كان ذلك مطلوباً وفي زمن قصير جداً، وقد وجدت الصهيونية الوسيلة، يقول مناحم بيجين في كتاب «الثورة» عام ١٩٥٦م: «ينبغي عليكم أيها الإسرائيليون! ألا تلينوا أبداً عندما تقتلون أعداءكم، ينبغي ألا تأخذكم بهم رحمة حتى ندمر ما يسمى بالثقافة العربية التي سنبني على أنقاضها حضارتنا»(١). وأثناء حضور إسحاق شامير رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١م رفع بعضهم في وجهه نسخة من صورة له وزعت أيام الانتداب البريطاني في فلسطين مكتوب أسفلها «مطلوب حياً أو ميتاً»، فقال شامير: «سموني إرهابياً، سموني وطنياً، لولا الإرهاب لما قامت إسرائيل»(٢).

إن ثقافة القوة العنيفة هذه مستمدة من التراث العبراني عبر قرون متوالية، وحتى نقيس مدى تأثيرها الدموي يكفي أن نشير إلى الاقتران التطابقي بين «فكرة إسرائيل»

---

(١) إسرائيل. . الرؤساء، ص١٢.
(٢) السابق.

و«فكرة أمريكا»، «لقد تلبست فكرة إسرائيل جوهر فكرة أمريكا، وصاغت شكلها، فمن المسلَّمات أن الأمة الأمريكية أقرب إلى الإسرائيليين الأوائل من أي شعب آخر على وجه الأرض، وكل بلاغة العنف الأمريكية كانت وما تزال تستمد استعاراتها من أدبيات «فكرة إسرائيل» وقصصها وأنماط سلوك أبطالها، فقط تم وضع «الهنود» بدل «العرب»[١].

لنا أن نتخيل ماذا يمكن أن تفعل في عالمنا العربي ثقافة أدت إلى اجتثاث نحو مائة مليون هندي في عقود، ومن اللافت هنا أنه من الدارج - على الأقل أكاديمياً - وصف الهنود الأمريكيين بـ«العرب» على سبيل التحقير؛ للهنود طبعاً. ويروي وولتر كاواموتو من جامعة ولاية أوريجان والمسؤول عن الأقلية العرقية في المجلس الوطني للعلاقات أن اسم (عرب أمريكا) يطلق على الهنود الأمريكيين في دروس العلاقات العرقية وفي أدبيات عدد من المنظمات الوطنية الأمريكية، كذلك يطلق عليهم اسم: (المسلمين الأمريكيين)[٢].

مع تتابع الأجيال حرص «الآباء المؤسسون» على أن تنقل إليهم ثقافة القوة وتتغلغل في عقولهم عبر التعليم والإعلام وكل وسيلة متاحة. تقول الكاتبة اليهودية البارزة أوريت دغاني: «نحن لا نعرف إلا لغة الحروب ولا نعرف لغة غيرها، ولسنا مستعدين لتعلم لغة أخرى.. حتى برامج الترفيه والرقص التي تقدمها قنوات التلفزة الإسرائيلية تستند إلى ثقافة الحروب وتتأثر بها أكثر من غيرها»، وتقول دغاني أيضاً: «إن الإسرائيليين يندفعون إلى الحرب لأنهم يكرهون السلام، ويعتبرون القوة هي

---

(١) انظر: كتاب تلمود العم سام، منير العكش، ص٢١٠ - ٢١١.
(٢) السابق، ص٣٣؛ الهامش.

الخيار الوحيد لتحقيق الأهداف»[١] .

هل يقف القانون أو القيم الأخلاقية في طريق القوة الإسرائيلية؟

العوائق القانونية والأخلاقية لا تأثير لها عند استخدام الصهيونيين للقوة، ومن ثم من يحاول أن يوقف العدوان الإسرائيلي عن طريق «الإفحام» الأخلاقي والقانوني لن يصل إلى شيء؛ لأنهم لا يشعرون بأي حرج أو تَأَزُّم، فهم قد تجاوزوا ذلك منذ مرحلة بعيدة، يقول بن جوريون: «يمكن وضع القانون جانباً والاعتراف بما يصنعه اليهود»، أما رديفه شامير فيصل بالقسوة الإسرائيلية إلى مستوى «الطاعة الشرعية». . إذن فهم «يَذبحون ويُؤجرون»، يقول شامير: «فلنلتفت إلى معتقداتنا نحن حيث لا الأخلاق ولا التقاليد اليهودية تنبذ الإرهاب بوصفه وسيلة قتالية في مجرى الصراع، لذا فنحن بعيدون كل البعد عن تأنيب الضمير إزاء استخدامنا وسائل الإرهاب، وفي التوراة جاء: امحقوهم عن آخرهم، أبيدوا حرثهم ونساءهم. . إن إرهابنا يلعب دوراً كبيراً في معركتنا هذه»[٢] .

وحتى عندما يتحدثون عن السلام فهو ليس كما اعتاد عرفات أن يردد «سلام الشجعان»، بمعنى الشجاعة في تقديم التنازلات، ولكن السلام الصهيوني هو سلام القوة، «إن التآخي العام بين الناس لا يعدُّ حتى جميلاً، فالعدو شرط ضروري لأرفع مجهودات الإنسان وأسماها، إن الإنسان الذي يخترع مادة شديدة الانفجار يعمل لأجل السلام أكثر من ألف داعية إلى اللطف والرفق واللين»[٣] .

---

(١) معاريف، مركز باحث للدراسات.

(٢) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص١٧ - ١٨ .

(٣) من كلام تيودور هيرتزل، السابق، ص١٧ - ١٨ .

أهم تطبيقات القوة الصهيونية: عقاب الشعوب الحاضنة للمقاومة:

تقدم لنا كاتبة إسرائيلية يسارية - أي: ليست متطرفة - قياساً بسيطاً يساعد في تصور الحد الأقصى للقوة الذي يبيح الصهاينة لأنفسهم استخدامه في تحقيق مصالحهم، إنه مقياس: مليون ونصف المليون مقابل واحد، الواحد طبعاً هو الجندي الأسير جلعاد شاليط، والمليون ونصف المليون هم سكان غزة، «هذا الوقوف الصلب الذي لا هوادة فيه يجب أن يكون واضحاً لإسماعيل هنية، ولحكومته ولسكان حماستان. أجل، إنه واحد إزاء مليون ونصف المليون فلسطيني سكان قطاع غزة. جندينا الواحد يساوي هذا. إنه يستحق ذلك»[١].

يحلو للناطقين الإعلاميين باسم جيش الاحتلال أن يتحدثوا عن التدابير الوقائية التي يتخذها الجيش حتى يتجنب وقوع إصابات بين المدنيين، ويبالغون أحياناً في تعليل سبب التقدم البطيء لقواتهم البرية في المناطق السكانية الفلسطينية بسبب تلك التدابير، فهل ذلك صحيح؟

لا يحتاج إثبات العكس إلى مجهود يُذكر، فالقادة السياسيون والعسكريون والدينيون لا يدخرون وسعاً في توجيه الجنود بصورة مباشرة لقتل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين. يخاطب الحاخام عوفاديا يوسف الجنود الصهاينة قائلاً: «نحن شعب الله المختار لإذلال العرب، حُرِم علينا إبداء أي رحمة تجاه العرب، عليكم أن تمطروهم بالصواريخ وأن تقضوا عليهم فهم أشرار ملعونون»[٢]. وفي الحرب الأخيرة على غزة وقف الجنرال دان هيرائيل نائب رئيس الأركان - أي: الرجل الثاني في

---

(١) ياعيل باز، مقال: أجل.. عقاب جماعي، معاريف، مركز الأسرى ٢١/٦/٢٠٠٧م.

(٢) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص٤٢.

الجيش الصهيوني - أمام حشود الجند على مشارف القطاع، وخاطبهم دون مواربة: «أمامنا اختبار يجب أن نجتازه بنجاح فإذا ما اجتزناه وصلنا نحن دولة إسرائيل إلى بر الأمان... علينا أن نعمل كل شيء حتى نحسم المعركة بشكل نهائي، علينا أن نستعمل ما بحوزتنا من قوة ومن نيران باقتدار على سحق أعدائنا دون تمييز ودون رحمة»[١].

هل هو عقاب جماعي إذن لسكان غزة لأنهم يؤيدون المقاومة؟ نعم إنه كذلك، لا يوجد تفسير آخر، لقد كانت الحرب عقاباً بأثر رجعي، عقاباً على تأييد حماس في الانتخابات، وعلى الهتاف لهم وعلى فرحهم بالمقاومة وتعاطفهم معها، ولذلك كان الحكم الصهيوني واضحاً: «الرحمة على السكان الفلسطينيين البائسين الذين يتمزقون بيننا وبين حماس؛ يجب أن تكون دوماً مخلوطة بمعرفة أن السكان ذاتهم حقاً بأغلبيتهم الساحقة يصوتون لحماس في الانتخابات، يهتفون لحماس في المهرجانات، يرقصون على الأسطح في كل مرة يسفك فيها دم يهودي، وبعد ذلك يتباكون مطالبين بالرحمة. لا رحمة في هذا المكان. من لا يرحم أطفال سديروت لا يجب أن يتوقع منا أن نرحم أطفاله في بيت حانون»[٢].

رابعاً: المقاومة الإسلامية:

من الناحية العملية فإن المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين لم تكد تتوقف منذ تأسيس الكيان، قد تتراجع وتيرتها إلى الحد الأدنى حتى لا تكاد ترى، ولكنها

---

(١) هذا الجنرال كان له دور كبير في مذبحة جنين عام ٢٠٠٠م، محمود الزغبي، مركز الناطور للدراسات، ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٨م.
(٢) بن كاسبيت، معاريف، مركز الناطور ٤/ ١/ ٢٠٠٩م.

مستمرة. وفي أعقاب هزيمة ١٩٦٧م تزايدت وتيرتها مع دخول حركة فتح وفصائل فلسطينية أخرى إلى الميدان، إلا أن هذه المقاومة كانت تتخذ طابعاً خاصاً وكان تأثيرها على الداخل محدوداً.

يقدم الكاتب الإسرائيلي المعروف يوسي ميلمان وصفاً دقيقاً لمسار هذه المقاومة: «حاول الفلسطينيون من خلال الأشهر الأولى التي أعقبت حرب ١٩٦٧م وبعد أن أفاقوا من غيبوبة الهزيمة والاحتلال؛ الانتقام من الإسرائيليين، وقد انطوت خطتهم التي أقرتها منظمة التحرير الفلسطينية على جعل الأراضي المحتلة أراضي يستحيل على الإسرائيليين حكمها. ما كان يجول في عقولهم هو (نضال التحرير الشعبي) على غرار أفكار (ماوتسي تينج الصين) و(فيدل كاسترو كوبا)، بيدَ أن المنظمة فشلت في أن تستقي من قول ماوتسي تينج بأن على مقاتلي المدغرة أن يحظوا بدعم شعبهم وأن يشعروا (كالسمكة في الماء).. لم يعد بمقدور مقاتليها السباحة دون أن يرقبهم أحد وهم بين أهليهم الذين دفعوا بهم إلى جهاز الأمن العام (الشاباك).. لقد فضل السكان المحليون تدفعهم بعض المغريات الإسرائيلية؛ العيش بسلام وهدوء على المخاطرة والتعاون مع منظمتهم السرية»[١]. ثم يلخص ميلمان النتائج الإجمالية لمقاومة منظمة التحرير في داخل فلسطين: «لقد استمرت المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي طوال السنين الخوالي دون أن تلحق أذى حقيقياً في مجرى الحياة اليومية الروتينية لإسرائيل، ليس هذا فحسب بل إن المقاومة الفلسطينية الطيعة قد سهلت على الإسرائيليين قطف ثمار احتلالهم، إذ اعتبروا السكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة أيدي عاملة رخيصة واتخذوا منهم موقف التفوق عليهم والازدراء منهم»[٢].

(١) الإسرائيليون الجدد، ص٢٠٧ - ٢٠٨.
(٢) السابق.

مقاومة الشيوخ - ثورة المساجد:

كانت هناك مقاومة أخرى من نمط مختلف قد ظهرت بوادرها بعد هزيمة الستينيات لكن على نطاق محدود، حيث تشكلت مجموعات فدائية من الإخوان المسلمين الفلسطينيين انفردت بقواعد أنشئت باسم حركة فتح على مشارف غزة وأطلق عليها «قواعد الشيوخ»، ومع أنها لم تستمر طويلاً إلا أنها تركت أثراً ملحوظاً؛ حتى إن بعض المصادر نقلت عن ياسر عرفات أنه كان يكرر أمام رفاقه في الفصائل «أنه يريد عمليات مثل عمليات الشيوخ»، ولم تتوقف هذه العمليات إلا نتيجة المد اليساري الكاسح وقتها والذي كان يجهر بالإلحاد والعداء للدين، بالإضافة إلى أن فتح وفصائل متحالفة معها ارتأت أن تفتح لنفسها جبهة أخرى. . لكن مع الأردن، فأعلن الإخوان حيادهم وأعلنوا للجميع أن «بندقيتنا مع بنادقكم ما توجهت غرباً، فإذا وجهت البندقية للجندي، ووجه الجندي بندقيته للفدائي؛ فإن بندقية المسلم لا تقتل الجندي ولا الفدائي»[1].

مع بداية الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي بدأت ملامح عودة المقاومة الإسلامية من جديد متمثلة في عمليات «الجهاد الإسلامي»، ثم دخل الإخوان على الخط من خلال عمليات محدودة حتى عام ١٩٨٧م حيث تزامن الإعلان عن تأسيس حركة حماس من رحم الإخوان، مع اندلاع الانتفاضة الأولى، ومنذ البداية كان واضحاً أن المقاومة تتخذ سمتاً إسلامياً جلياً حتى إنها سميت «ثورة المساجد»، ثم تراجعت الانتفاضة مع تنفيذ اتفاق أوسلو وبدأ صراع داخلي فلسطيني تطبيقاً لبنود الاتفاقية التي تكفل الأمن للكيان الصهيوني، لكن لم تنقطع المقاومة وظلت مستمرة

(١) انظر كتاب: حماس الفكر والممارسة السياسية، ص٣٠ - ٣١.

مع تفرد الطابع الإسلامي هذه المرة من خلال سلسلة من العمليات الاستشهادية أسفرت عن تداع عالمي في شرم الشيخ لإنقاذ الأمن «الإسرائيلي» المتدهور. ومع اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م لم يعد هناك جدال في أن المقاومة الإسلامية سيدة الميدان، وأن حماس تحديداً باتت تقود المقاومة الفلسطينية وتنفرد بها أحياناً.

ومع تبعات المقاومة وتداعياتها على المجتمع الفلسطيني فإن ذلك لم يضعف أو يقلل من دعمه لها، بل على العكس من ذلك؛ فإن حماس «حظيت بتأييد شعبي يفوق حجمها التنظيمي أو قدرتها على الاستيعاب، ويتجاوز دوائر المتدينين المقتنعين بأطروحتها الدينية أو الفكرية. وبحسب بعض المراقبين فإن مئات الآلاف ممن يؤيدونها من الشعب الفلسطيني لا يعرفون حتى شكل المساجد من الداخل»[1]، ومع ما في ذلك التقدير من مبالغة إلا أنه يظهر حجم الثورة الداخلية التي أحدثتها حماس في أوساط الفلسطينيين.

وتراصت الحقائق أمام سلطات الاحتلال كالتالي:

١ - المقاومة لم تعد أداة ضد الاحتلال قط، بل أصبحت أداة تغيير للثقافة المجتمعية التي تداعت قدرتها على الصمود أو كادت، ويكفي أنه في خلال ٢٢ عاماً ظل الشعب الفلسطيني منتفضاً تحت شعارات غالبها إسلامي مدة لا تقل عن عشر سنوات في هذه المدة، وفي الاثني عشر عاماً الباقية لم تتوقف المقاومة الفصائلية المدعومة جماهيرياً.

٢ - اكتست المقاومة بطابع ديني جرفها بعيداً عن السياسة وهو ما يعني صلابة وثباتاً في مواجهة المغريات السياسية.

---

(١) السابق، ص٣.

٣ – احتلت حماس المرتبة الأولى في تنفيذ عمليات المقاومة وأبرزها العمليات الاستشهادية، فقد نفذت الحركة ٥٨ عملية في سنوات الانتفاضة الخمس، بنسبة ٤٠٪ من إجمالي العمليات، يليها حركة الجهاد الإسلامي، التي نفذت ٣٩ عملية بنسبة ٢٧٪، ثم حركة فتح ٣٣ عملية بنسبة ٢٣٪[١].

٤ – بالمقارنة مع مقاومة منظمة التحرير التي كانت تطلق النار بيد وتلوح بـ «غصن الزيتون» باليد الأخرى؛ فلم تحفل المقاومة الإسلامية بحمل أية أغصان من أي نوع، إذ كانت ترفع شعار التحرير وليس التحريك الذي تبنته حركة فتح، وأعلنت أن الجهاد هو السبيل لتحرير الأرض، ورفضت الاستثمار السياسي للانتفاضة[٢].

٥ – أصبحت المقاومة تمارس على مستوى دوائر ثلاث عمليات فردية مستقلة، وعمليات على مستوى الفصائل، ومقاومة جماهيرية ثورية «الانتفاضة»، وهذا معناه من الناحية العملية أن المقاومة لن تتوقف، فهي تتنقل بين الدوائر الثلاث طول الوقت، وقد بلغت حصيلة عمليات المقاومة خلال انتفاضة الأقصى في الفترة من ٩/ ٢٠٠٠م إلى ٤/ ٢٠٠٥م؛ ٢٥٣٧٥ عملية، أسفرت عن مقتل ١٠٨٠ صهيونياً؛ حسب الحصيلة الإسرائيلية[٣].

٦ – تحول الداخل الصهيوني إلى هدف مفضَّل للعمليات، التي كانت تقتصر قبل ذلك على استهداف الدوريات الراكبة والجنود، وقد استحوذت القدس على مكانة متقدمة نظراً لمكانتها في نفوس المقاومين والسهولة النسبية للدخول إليها، فقد

---

(١) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٣/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٢) حماس، الفكر والممارسة السياسية، ص٧٨.
(٣) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٣/ ١/ ٢٠٠٦م.

استأثرت بـ ٦٣٥ عملية من عمليات المقاومة؛ من بينها ٣٠ عملية استشهادية، و ٣١ عملية طعن[١].

٧ – تنامي تأثير الحركة في الفصائل الأخـرى، وظهر ما يمكن تسميته «نمط حماس»، بمعنى: أن أساليبها ووسائلها وأفكارها تحولت إلى مصادر للاقتباس والإلهام لدى كثير من المقاومين في الفصائل الأخرى، ولم تسلم فتح من الوقوع في أسر هذا «النمط الإسلامي المقاوم»، ففي حادثة معبرة وقعت في السنوات الأولى لانتفاضة الحجارة تم توزيع استبانة سرية على عناصر حركة فتح في منطقة نابلس، وتضمنت ٢٠ سؤالاً تقريباً، وكان التركيز على ثلاثة منها، وهي: السؤال الأول هو: كيف تنظر إلى حركة حماس؛ هل هي حركة وطنية؟ أم حركة عميلة؟ أم حركة معادية لنا؟ السؤال الثاني هو: هل ترى التنسيق مع حركة حماس ضرورياً ومهماً؟ أم لا؟ السؤال الثالث هو: عندما تقوم دولة فلسطين كيف ترى نظام الحكم في هذه الدولة؛ هل هو إسلامي ؟ أم عَلْماني ؟ أم ديمقراطي؟

وكانت المفاجأة في الإجابات وليس في الأسئلة، كانت الإجابات كالتالي: ٨٠٪ ممن شملتهم الاستبانة عدّوا حماس حركة وطنية يجب التنسـيق معهـا، وما يقـارب الـ ٨٠٪ اختاروا أن يكون منهج الدولة القادم هو الإسلام[٢].

٨ – رغم أن حماس تؤكد دوماً على أهمية المقاومة العسكرية واستمراريتها؛ إلا أنها لا تنطلق في تطبيق هذا المبدأ من رؤية صماء لا تشعر أو تحس بحالة الجماهير، بل على العكس من ذلك ارتبط أداء المقاومة بعدة عوامل كانت مراعاة أحوال الناس

---

(١) السابق، ١٢/١/٢٠٠٦م.
(٢) انظر: درب الأشواك، ص٥٢.

أحدها، على سبيل المثال في عام ١٩٩٦م وعندما اشتد الحصار داخلياً وخارجياً على الحركة، وتكرر إغلاق الاحتلال للقطاع، وتوقف العمال عن التوجه صوب أراضي ٤٨؛ بدأت حماس تعيد تقويم العمل المسلح، وأعلن غازي حمد بعد الانتخابات ذلك العام - ١٩٩٦م - أن «الغالبية في الحركة مع وقف العمليات العسكرية مؤقتاً»[١].

٩ - قدرة المقاومة على تطوير أسلحتها الإستراتيجية، ففي الانتفاضة الأولى استخدمت الحجارة ثم السكاكين ثم الرصاص، وفي الانتفاضة الثانية استخدمت العمليات الاستشهادية مع الهجمات الفدائية، وبلغ عدد العمليات التي تم تنفيذها في الفترة من سبتمبر ٢٠٠٠م إلى ديسمبر ٢٠٠٥م ١٤٦ عملية استشهادية، نفذها ١٥٥ استشهادياً و٨ استشهاديات[٢]، ثم بدأ استخدام الصواريخ يتزايد منذ أُطلِق أول صاروخ من غزة في ١٦/ ٤/ ٢٠٠١م على بلدة سديروت، ثم أُطلِق أول صاروخ من الضفة في يونيو ٢٠٠٥م[٣]، وكان أول صاروخ صنعته عناصر حماس لا يتجاوز مداه ٣كم، بينما أطلقت الحركة في حرب غزة عام ٢٠٠٩م صواريخ تبلغ مداها من ٥٠ - ٦٠كم[٤]، وأخيراً لجأت المقاومة إلى تنفيذ عمليات أسر للجنود الصهاينة لمزيد من الضغط السياسي على حكومة الاحتلال ولمبادلة المخطوفين بأسرى فلسطينيين.

١٠ - لاحقاً بدأت القدرات العسكرية لحماس تتطور في اتجاه إعداد البيئة المحيطة وتطويعها لتصبح بيئة قتالية موائمة، وأبرز مثال على ذلك: استخدام الأنفاق وسيلة قتالية ولكسر الحصار المفروض على القطاع. وحسب المصادر الإسرائيلية فإنه

---

(١) حماس، الفكر والممارسة السياسية، ص٢٧٢.
(٢) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٣/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٣) مختارات إسرائيلية، ٢٠٠٨م، مقال د. أشرف الشرقاوي.
(٤) إسلام أون لاين، مقال جمال عرفة، ٨/ ١/ ٢٠٠٩م.

تم رصد أربعة أنواع من الأنفاق؛ أولها: أنفاق التهريب على محور صلاح الدين على امتداد حدود القطاع مع مصر، وثانيها: أنفاق تستخدم في المهام الهجومية ضد مواقع الجيش الصهيوني القريبة من القطاع، و «تُمكّن هذه الأنفاق من حيازة عامل المفاجئة والوصول إلى قلب المنطقة الإسرائيلية من خلال التغلب على الجدار الأمني، والعودة بأمان إلى القطاع ثانية، وتم استخدام نفق من هذا القبيل في تنفيذ العملية التي وقعت في ٢٥ يونيو ٢٠٠٦م ضد موقع عسكري، بالقرب من معبر صوفا، قُتِل خلاله جنديان واختطف الجندي جلعاد شاليط، وثالثها: أنفاق تستخدم بوصفها طعماً حيث تترك مكشوفة نسبياً ليسهل على جنود الاحتلال اكتشافها ويكون بداخلها عبوات ناسفة لقتل من يقتحمها، ورابعها: أنفاق يتم حفرها بين المنازل لتأمين عمليات الفرار والانتقال وتخزين العتاد العسكري[١].

وقد كانت الأنفاق من الوسائل الرئيسة المستخدمة من قِبَل قوات التحرير في الحروب غير المتكافئة، كما حدث في الغزو الأمريكي لفيتنام، حيث أنشا الثوار شبكات معقدة من الأنفاق امتدت عدة كيلومترات، وتكونت من عدة طوابق واحتوت على مستودعات ومطابخ ومستشفيات، ونجحوا من خلالها في تجميد ١٦ ألف جندي أمريكي وكانت من أسباب انتصارهم لاحقاً وانسحاب الأمريكيين[٢].

بعد مقتل عرفات وتسلم أبو مازن الرئاسة الثلاثية (فتح - منظمة التحرير - السلطة)؛ تحول خطاب السلطة إلى الاستسلام والخضوع، وأعلن أبو مازن أن سلطته تسعى إلى نشر ثقافة السلام لدى الشعب الفلسطيني[٣]، بينما أعلن محمود الزهار

---

(١) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٨م.
(٢) انظر: موسوعة أنواع الحروب، ص١١٤ - ١١٥.
(٣) رويترز ٢٢/ ٨/ ٢٠٠٥م.

القيادي في حماس: «إننا نريد نشر ثقافة المقاومة»[1].

كيف واجه الصهاينة المقاومة الإسلامية؟

اثنان وعشرون عاماً مرت منذ تأسيس حماس عام ١٩٨٧م؛ جرب الاحتلال فيها كل ما يملك من خيارات لإجهاض المقاومة أو تصفية حماس عسكرياً أو حرقها سياسياً أو تدميرها اجتماعياً ودينياً، ولكن كل هذه الخيارات احترقت، وبات واضحاً أن الكيان الصهيوني يواجه حماس بدون أي خيارات جديدة، وهذه في نظري أهم نتائج حرب غزة ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م، فلم يعد الاحتلال يملك شيئاً في مواجهة المقاومة، ولذلك تواترت علامات التداعي مؤكدة هذا الانهزام، ولعل من أبرزها السجال حول مدة الهدنة هل هي عام أم عام ونصف العام أم دائمة، والأصل أن الطرف الأقوى هو من يطلب تقصيرها، والأضعف - عسكرياً - هو من يستجدي إطالتها، ولكن في حالة حماس يحدث العكس، فالحركة تريد هدنة قصيرة الأمد والاحتلال يتسول هدنة دائمة.

وقبل استعراض أهم الوسائل والضربات التي تعرضت لها حماس في صراعها مع الكيان الصهيوني لابد من التأكيد على ملاحظات جوهرية:

١ - غالبية هذه الوسائل إن لم يكن جميعها انعكس تأثيرها على نحو رباني عجيب ليصب في مصلحة المقاومة آجل الأمر، وعاجله أحياناً، ففي بعض المرات كان الانعكاس مذهلاً بحيث إن المتأمل لا يملك إلا أن يستحضر قول الله - عز وجل -: ﴿ **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [**الأنفال**: ٣٠]، وقوله

(١) الشرق الأوسط، ١٨/ ٨/ ٢٠٠٥م.

- تعالى - : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ [**الحج** : ٣٨] ، وقوله - جل وعلا - : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ [**الأنفال** : ٣٦] .

٢ - لم تؤثر هذه الضربات المتتالية في بنية الحركة وتماسكها تأثيراً سلبياً ، مع أن أسلوب القيادة الجماعية دون قائد واحد معروف من شأنه أن يكثر موارد الخلاف ، إلا أنه لم تؤثر عن الحركة انشقاقات أو اختلافات تعرقل مسيرتها ، ولعل أبرز انشقاق - منهجي - حدث في صفوفها كان منتصف التسعينيات عندما نجحت سلطة عرفات في اجتذاب عماد الفالوجي أحد قادة الحركة وتعيينه وزيراً للاتصالات ، ما عدا ذلك وعلى الرغم من تعدد نشاطات الحركة ودخولها في ميادين جديدة ومرورها بمنعطفات حادة تقتضي اجتهادات واختلافات في الرؤى ، مع ذلك كله بقيت متماسكة صلبة . والذي يسمع دعاوى الكثيرين عن خلافات بين الداخل والخارج أو بين قيادات غزة ؛ يظن أن الحركة على وشك التفكك ، بينما هذه الادعاءات مصاحبة لها منذ نشأتها ويكاد يكون تداولها «موسمياً» مع كل تطور سياسي على الساحة الفلسطينية .

٣ - من علامات الصحة داخل أي تنظيم سياسي أو عسكري أنه لا يتوقف عن النمو خلال مسيرته وصراعاًته مع خصومه ، وبالنسبة لحماس فإن نموها البشري لم يتوقف منذ تأسيسها ، بل كان في أغلب الأحيان يتخذ منحنى تصاعدياً ، مع الأخذ في الحسبان أن الحركة بوصفها تنتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين لها قيود خاصة فيمن ينتمي إليها ، وكانت هذه القيود أكثر وضوحاً في المرحلة الأولى من التأسيس ، وكان ذلك من معوقات الانتشار والتوسع في ذلك الوقت ، بحيث إن أعداداً من الجماهير تطلب الانضمام إلى الحركة دون أن يكون ذلك ممكناً ، وتم استحداث ما أطلق

عليه وقتها «جهاز أنصار حماس» لاستيعاب المنضمين الجدد بعيداً عن الشروط المعروفة[1].

من البداية إلى ديسمبر ٢٠٠٨م:

وجَّه الاحتلال إلى حركة حماس ضربات متلاحقة لم تتوقف منذ مطلع الثمانينيات - قبل حتى نشأتها - وإلى حرب غزة ٢٠٠٩م.

الإجراء (١): في عام ١٩٨٤م بدأت التجربة الأولى في المقاومة المسلحة، لكنها لم تحقق نجاحاً بسبب اكتشافها المبكر، واعتقل أشخاص كان من بينهم المؤسس أحمد ياسين، الذي حكم بالسجن ١٣ عاماً لكنه خرج بعد عامين في صفقة تبادل للأسرى مع الجبهة الشعبية (القيادة العامة) ليتابع العمل[2].

النتيجة: زادت هذه الاعتقالات وإخفاق المحاولة الأولى من عزم قادة الإخوان داخل فلسطين في ذلك الوقت على تعميق التجربة العسكرية ودخول ميدان المقاومة بقوة، وأثمر ذلك بالفعل إعلان تأسيس حماس في ٨ - ١٢ - ١٩٨٧م.

الإجراء (٢): كانت الضربة الثانية عام ١٩٨٨م وامتدت حتى عام ١٩٨٩م، حيث اعتقل أولاً ١٥٠ من قادة الحركة من بينهم د. عبد العزيز الرنتيسي، وصلاح شحادة مؤسس أول جناح عسكري لحماس، وإثر تنفيذ أول عملية عسكرية لحماس - اختطاف وقتل الجنديين الصهيونيين إيلان سعدون وآفي سسبورتس - شنت قوات الاحتلال حملة مسعورة ضد الحركة نالت ٢٦٠ من عناصرها وقادتها من بينهم الشيخ أحمد ياسين، وكان زلزالاً كبيراً للحركة «يكفي أن أقول: إن العناصر المتبقية من

---

(١) درب الأشواك، ص ٢٦، ٢٧، ٣٨.
(٢) الظاهرة الإسلامية قبل ١١ أيلول وبعده، ياسر الزعاترة، ص٧٣.

الحركة لم تكن تجرؤ على الكلام، وكان كل فرد منا ينتظر دوره في الاعتقال، ولم يكن الأمر هيناً؛ لأن التعذيب في المعتقلات يأخذ أشكالاً لا يمكن احتمالها؛ لأنها تفوق كل تصور. تحت وطأة التعذيب الرهيب كانت هناك اعترافات أدت إلى مزيد من الاعتقالات.. ونالت الاعتقالات الأجهزة العاملة للمكتب الإداري للحركة وهو أعلى هيئة في الحركة والجهاز الأمني الذي قاده الأخ يحيى السنوار وإخوانه، والجهاز العسكري الذي قاده الشيخ صلاح شحادة وإخوانه وجهاز الدعوة... وغيرهم»[١].

النتيجة: كانت المرة الأولى التي يتعرض فيها أغلب الصف الأول القيادي للحركة للاعتقال بصورة جعلت بنية الحركة في حالة خطيرة تقترب من الانهيار وتفككت أوصال التنظيم، ولكن في خلال أيام قليلة تضافرت جهود من بقي من قيادات الصف الثاني للملمة الأوضاع وتدارك الموقف، وساهم د. موسى أبو مرزوق الذي قدم من أمريكا إلى غزة خصيصاً في الإشراف على إعادة بناء الحركة من جديد، وبالفعل استطاعت القيادة الجديدة أن تعاود إصدار البيان الشهري للجماعة في موعده، وهو ما شكل مفاجأة للجميع حيث توقعوا أن حماس انتهت قبل أن تبدأ، وكان تدخل أبو مرزوق أول إشارة إلى التفات قيادة الحركة إلى أهمية وجود قيادة في الخارج تكون في مأمن من الضربات الداخلية بما يجعلها قادرة على معالجة أي انهيارات أو أزمات محتملة في الداخل، كما اكتسبت الحركة قدرة على التعامل مع الاعتقالات واسعة النطاق وهو ما ظهر أثره بعد أقل من عامين.

---

(١) القيادي السابق في حماس، عماد الفالوجي، كتاب درب الأشواك: حماس الانتفاضة السلطة، ص٢٨ - ٢٩. وانظر: الظاهرة الإسلامية قبل ١١ أيلول وبعده، الزعاترة، ص٨١.

الإجراء (٣): الضربة الثالثة جاءت نهاية عام ١٩٩٠م وتم اعتقال ١٧٠٠ عضو من الحركة وكانت أكبر عملية اعتقال تتعرض لها حتى ذلك التاريخ، ثم في عام ١٩٩٢م تم إبعاد ٤٠٠ من قادة الحركة إلى مرج الزهور في جنوب لبنان، لكنهم عادوا بعد أقل من عام وأغلبهم أعيد اعتقاله.

النتيجة: كانت هذه الاعتقالات «بروفة» حقيقية للتأكد من إتقان عملية إعادة التأسيس بعد الضربة السابقة، وبات واضحاً للجميع أن حماس يصعب تصفيتها بالاعتقال، واكتسب أنصارها ثقة عالية وارتفع المستوى الأمني والعسكري داخل الجماعة.

الإجراء (٤): بعد استلام منظمة التحرير للسلطة الفلسطينية وبدء أجهزة الأمن التابعة لها في العمل؛ دخلت حماس في مرحلة مرهقة من المتابعات الأمنية المستمرة والملاحقات لقادتها وعناصرها كانت تهدأ حيناً وتشتعل أحياناً، وتعرض أغلب القادة للاعتقال والتعذيب بدرجة لم تختلف عما كان يحدث في سجون الاحتلال.

النتيجة: فتح هي المنافس الرئيس لحماس، وقبل اتفاق أوسلو كانت توجد منافسة حامية على قيادة الانتفاضة وتوجيهها من خلال ما سمي وقتها بـ «القيادة الموحدة» وكانت فتح تسيطر عليها، بينما رفضت حماس الانضمام، وهو ما أتاح للحركة وضوحاً في الأسلوب. ومع بدء تنفيذ أوسلو ترك عناصر فتح السلاح، وتسلموا سلاحاً آخر من الدعم الأمريكي والإسرائيلي لتوجيهه خصيصاً إلى فصائل المقاومة التي لا تزال على العهد، وأسفر ذلك عن تراجع في شعبية فتح وبدء تحول دفة الرأي العام في اتجاه حماس.

الإجراء (٥): بعد سلسلة ناجحة من العمليات الاستشهادية تداعت دول العالم إلى شرم الشيخ عام ١٩٩٦م بمشاركة دول عربية لإنقاذ أمن الكيان وتم إعلام المقاومة بوصفها أحد أشكال الإرهاب التي يجب مواجهتها دولياً، وباتت حماس حركة «إرهابية».

النتيجة: رغم الحصار الذي فرض على الحركة داخلياً وخارجياً إلا أن سمعتها جابت الآفاق، وتزايد تأييد الرأي العام العربي والإسلامي لها بعد تمخض المواجهة بصورة سافرة بين المعسكر الغربي وحركة مقاومة إسلامية.

الإجراء (٦): اندلعت انتفاضة الأقصى في سبتمبر ٢٠٠٠م وبدأت معها سلسلة من الضربات الأمنية تمثلت في اعتقالات واسعة النطاق، واغتيالات لقادة الجناح العسكري لحماس وعناصره، ثم توسعت الاغتيالات لتشمل القادة السياسيين للحركة، ويمكن ملاحظة تطور تعامل سلطات الاحتلال مع قادة الحركة على النحو التالي اعتقال القيادات الرئيسية - اعتقال جيل قيادي كامل - اغتيال قيادات الجناح العسكري - اغتيال قيادات سياسية - اغتيال القيادات الكاريزمية - اغتيال قيادات الخارج.

النتيجة: هذا التطور يعطي دلالة بأن الاحتلال يعاني من ارتباك واضح في التعامل مع آلية القيادة داخل الحركة، فهو لا ينطلق من منهجية واضحة في تصفية القيادات سواء كان ذلك بالاغتيال أو الاعتقال، خاصة أنه بات يتعامل مع ثلاثة مستويات من القيادة: قيادة الضفة، وقيادة غزة، وقيادة الخارج. وكل فئة من هذه الفئات القيادية ذات طابع جماعي وليس فردي، إذن هناك عشرات الأسماء كلها

يطلق عليها لقب «قيادي» في حماس، ومن دلائل هذا التخبط أنه الاغتيال يفترض به أن يتركز على ما تصفهم دوائر الإعلام الصهيونية بأنهم «صقور» ويتركون الحمائم، ولكن على العكس لم تفرق الاغتيالات بين «حمائم» أو «صقور»، والمثال الأهم في هذا الصدد هو اغتيال إسماعيل أبو شنب - سبتمبر ٢٠٠٣م - الذي صنفته الاستخبارات الصهيونية على أنه من «الحمائم»، وعندما تعالت أصوات الاحتجاج حتى من داخل الكيان نفسه، صرح موشيه يعلون رئيس الأركان وقتها بأن «جميع أعضاء القيادة السياسية والتنظيمية، فضلاً عن قادة الجهاز العسكري لحماس وعناصره قد صدر بحقهم قرار تصفية»، وأطلق على مخطط التصفية اسم «حلاقة نظيفة»[١]، في واقع الأمر لم يتعرض لـ «الحلاقة النظيفة» غيره، فقد ترك منصبه بعد وقت غير طويل.

وعلى مستوى قيادات الخارج حاول الموساد اغتيال خالد مشعل عن طريق خلية «قيسارية» المكونة من عدد من عملائه، وهي الخلية نفسها التي قامت باغتيال قائد الجهاد فتحي الشقاقي في مالطا نوفمبر ١٩٩٥م[٢]، لكن عملية اغتيال مشعل أخفقت ونتج عنها الإفراج عن مؤسس الحركة الشيخ أحمد ياسين، الذي قام بجولة عربية إثر الإفراج عنه رفعت من أسهم حماس على المستويين العربي والإقليمي.

الإجراء (٧): لجأ جيش الاحتلال إلى تنفيذ عمليات عسكرية شاملة ذات طابع دموي، ففي عام ٢٠٠٢م شنَّ حملة واسعة النطاق تحت اسم «السور الواقي» على الضفة الغربية نفذت فيها مذابح حقيقية كان أبرزها مذبحة جنين، وفي عام ٢٠٠٦م

---

(١) إسلام أون لاين، ١٤/ ٩/ ٢٠٠٣م.
(٢) فلسطين اليوم، ١٠/ ٦/ ٢٠٠٧م.

نفذ عملية عسكرية واسعة النطاق على غزة، وبعد سيطرة حماس على القطاع تتابعت عمليات القصف التي يتخللها حملات عسكرية محدودة توسع نطاقها في بداية عام ٢٠٠٨م، ثم تحولت في نهايته إلى حرب قاسية مدمرة استمرت ثلاثة أسابيع كاملة.

النتيجة: استفادت الحركة من الحملة المدمرة على الضفة وبدأت في التجهز لمواجهة حملة مماثلة في غزة، فكان ذلك بمنزلة التحذير المسبق، ولذلك أخفقت حملات الدهم من بيت إلى بيت في غزة نتيجة تجهز المقاومة لذلك رغم وقوع القطاع تحت الاحتلال وقتها، وبعد الانسحاب أحادي الجانب تزايدت أعمال التدريب وتحسين القدرة القتالية، وكان استلام أحمد الجعبري مسؤولية نائب رئيس كتائب القسام - محمد ضيف - بعد اغتيال صلاح شحادة عام ٢٠٠١م؛ نقطة تحول، إذ بدأ في استقطاب أكبر عدد ممكن من عناصر حركة حماس القادرين على حمل السلاح وتأهيلهم، وأشرف الجعبري على إنشاء أكاديمية عسكرية لكتائب القسام سميت حينها «أكاديمية الشهيد صلاح شحادة العسكرية» وكان مهمتها تدريس الفنون العسكرية المختلفة لعناصر كتائب عز الدين القسام والعمل على تخريج عناصر تصلح لحرب العصابات، وبدأ في تقسيم كتائب القسام بعد ضم الآلاف إلى صفوفها إلى ألوية وكتائب وسرايا وفصائل ووحدات مهنية مختلفة، مثل: الاستخبارات والتصنيع العسكري والاتصال والتسليح وسلاح المدفعية والدفاع الجوي[1].

الإجراء (٨): أعلن شارون في عام ٢٠٠٥م انسحاباً أحادي الجانب، وقيل وقتها: إنه يحاول تصدير الأزمة إلى الداخل الفلسطيني وتوكيل جناح دحلان بإكمال المهمة.

---

(١) إسلام أون لاين، ٢١/ ١/ ٢٠٠٩م.

النتيجة: كان الانسحاب منعطفاً إيجابياً في مسيرة الحركة، فهو زاد من ترسخها في القطاع، وأتاح لها اتخاذ قرار المشاركة السياسية، وكل ما ترتب على ذلك من فوز في الانتخابات ثم سيطرة على القطاع كان من تداعيات الانسحاب الذي أراد له شارون أمراً، وأراد الله له أمراً آخر، وهو ما أكده قادة الأحزاب الصهيونية - اليميني منها واليساري - عقب إعلان نتيجة الانتخابات، فقد أعلنت مصادر في حزب الليكود أن «فوز حماس هو نتيجة مباشرة لفك الارتباط؛ لأن الفلسطينيين أدركوا بأن الإرهاب والعنف هو الطريق إلى تحقيق إنجازات سياسية. وأن أولمرت وكديما يؤسسون لدولة إرهاب حماسية»[1]. وقال عضو الكنيست إيفي إيتام من الاتحاد القومي اليميني المتطرف: إنه على محمود الزهار أن «يرسل باقةً من الورد لإيهود أولمرت ووزراء حكومته الذين فضّلوا الاستسلام أمام الإرهاب.. بدلاً من العمل على تصفية قادة حماس، اختارت الحكومة طرد اليهود من أرضهم لتثبت للفلسطينيين أن طريق حماس والإرهاب تنتصر على إسرائيل»[2]. وقال يوسي بيلين زعيم حزب ميريتس اليساري: إن «انسحاب إسرائيل أحادي الجانب من قطاع غزة قد ساهم كثيراً في تقوية حركة حماس؛ لأن ذلك أضعف السلطة الفلسطينية»[3]. وأكد زفلون أورليف من الحزب القومي الديني (المفدال) على أن انتصار حماس كان نتيجةً للانسحاب أحادي الجانب من قطاع غزة[4].

الإجراء (٩): في ديسمبر ٢٠٠٥م أعلنت سلطات الاحتلال إنشاء منطقة عازلة

---

(١) يديعوت أحرونوت، مركز دراسات الشرق الأوسط، ردود الفعل الإسرائيلية حيال نتائج الانتخابات.

(٢) السابق.

(٣) هآرتس، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٦م، السابق.

(٤) جيروزاليم بوست، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٦م، السابق.

شمال القطاع لمنع إطلاق الصواريخ منها تجاه أشكلون والبلدات التي تقع شمالي القطاع .

النتيجة: استنكر المتحدثون باسم حماس والجهاد الإسلامي إقامة المنطقة العازلة، وهددوا بالاستمرار في إطلاق الصواريخ على أشكلون وأهداف أخرى في الكيان، والعثور على حلول تتجاوز الصعوبات التي تضعها إسرائيل من خلال زيادة مدى الصواريخ وإطلاق الصواريخ من مناطق أكثر قرباً[1]، وبالفعل زاد مدى الصواريخ، وأصبح خبر وصولها إلى أشكلون قديماً .

الإجراء (١٠): توقف الاحتلال عن اتخاذ أي إجراء من شأنه أن يعرقل الانتخابات البلدية أو الانتخابات التشريعية مطلع العام ٢٠٠٦م والتي شاركت فيها حماس، وحسب بعض المحللين فقد كانت حكومة الكيان وقتها تتوقع احتواء حماس سياسياً وابتعادها تدريجياً عن المقاومة .

النتيجة: تمكنت حماس من الفوز الساحق غير المتوقع في الانتخابات التشريعية وباتت مؤهلة لتشكيل الحكومة ومرشحة مستقبلاً للفوز في انتخابات الرئاسة، وفي الوقت نفسه لم تمنعها المشاركة السياسية من التمسك بالمقاومة وممارستها فعلاً .

الإجراء (١١): تم دفع تيار دحلان في حركة فتح لإفساد تسلم حماس للسلطات الممنوحة لها بعد تشكيلها الحكومة، وبدأ التخطيط لإجهاض الحركة وإغراقها في حرب أهلية في قطاع غزة .

النتيجة: وصلت المواجهات إلى نقطة (غير العودة) وهو ما اضطر قيادة حماس إلى اللجوء إلى خيار الحسم . ومرة ثانية فوجئت الحركة عندما هربت «فِرَق

---

(١) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٣/ ١/ ٢٠٠٦م .

الموت» التي أنشأها دحلان «فَرَقَاً من الموت» على نحو غير متوقع ليتركوا القطاع خالصاً دون منازعة لحركة حماس، وكان أغلب المسؤولين الأمريكيين والإسرائيليين بما في ذلك قادة أجهزة الأمن الوقائي الفلسطيني يؤكدون قبيل سقوط غزة بيد حماس بيومين فقط أن حركة فتح قادرة على الإطاحة بحماس والقضاء عليها، ولن تستطيع حماس مهما أوتيت من قوة التغلب على فتح في معركة غزة، ولكن المفاجأة أثبتت أن معلوماتهم الاستخبارية ناقصة وتعاني من فجوة، وأن حماس نجحت في حرمان أعدائها من المعلومات وهو ما مكنها من تحقيق التفوق الميداني[١].

الإجــراء (١٢): حصار قطاع غزة وغلق المعابر بما فيها معبر رفح منذ تنفيذ عملية الحسم في غزة في يونيو ٢٠٠٧م وحتى كتابة هذه الكلمات.

النتيجة: أدَّى الحصار إلى تزايد معدلات التعاطف مع القضية الفلسطينية والمقاومة إلى مستويات غير مسبوقة، وتداخلت قضية الحصار مع المقاومة لصالح حماس على المستويين الإقليمي والدولي، وتعاظمت التغطية الإعلامية للقضية. ومع قدرة الحركة على الصمود مدعومة من ثبات أهالي غزة فإن خياراً آخر من خيارات الصراع يتساقط من بين يدي المخطط «الإسرائيلي».

وانتقلت القضية من الحصار إلى منع التهريب، ومن غلق المعابر إلى تدمير الأنفاق، وهذه الوضعية أحدثت توتراً متزايداً نظراً لارتباط التكوين الثقافي اليهودي بنموذج «داود وجوليات» [٢] أي: داود صغير الحجم ضعيف البنية الذي يجذب تعاطف الجميع، وجوليات القوي الضخم الذي يثير نقمة الجميع. كان اليهود يروجون

---

(١) موقع الجمل، ١٠/١٠/٢٠٠٧م.
(٢) المقصود طبعاً النبي داود عليه السلام، وجالوت الطاغية المذكور في القرآن الكريم.

في صراعهم مع العرب لهذا النموذج بوصفهم الطرف الأضعف «المسكين»، والآن تتغير الصورة عالمياً ويدرك الرأي العام العالمي من هو «داود» ومن هو «جوليات»، وهذا بالمقياس اليهودي هو تراجع كبير، ومن الطريف أن شركة رفائيل العسكرية الصهيونية تعمل بالتعاون مع شركة رايتون الأمريكية على تطوير منظومة صواريخ مضادة لصواريخ المقاومة أطلقت عليها اسم «مقلاع داود»[1] في إشارة إلى إصرارهم على التمسك بصورة الضعيف رغم كل القسوة التي يبدونها.

لكن أبرز نتائج الحصار على صعيد الصراع بين حماس والكيان الصهيوني يمكن استنباطه من إفادة رئيس الموساد الإسرائيلي الأسبق أفرايم هاليفي: «إذا استمرت حركة حماس في قطاع غزة صامدة أمام سياسة الحصار المفروض عليها؛ فإن إسرائيل ستتعامل معها بوصفها طرفاً قوياً على الساحة الفلسطينية»، وقال أيضاً: «إسرائيل ستواصل سياسة الحصار المشدد على حماس في الوقت الحالي وتشدد عليها الضربات وتبقي على عزلها وتنتظر مدة ٥ - ٦ أشهر قادمة ونراقب ما الذي سيجري لحماس؟ إذا بقيت قوية نضعها على أجندتنا للحديث معها لاحقاً»[2]. كانت هذه التصريحات قبل عام ونصف العام ولا يزال شعب غزة وحماس صامدين رغم الحصار، ولا شك أن الحديث مع الصهاينة يُعد مغرماً وليس مغنما بالنسبة لحماس، ولكن تعبير هاليفي عنه بهذه الصورة يكشف أن الجعبة «الإسرائيلية» قد نفذت.

الإجـراء (١٣): شـن حملـة عسـكرية واسعـة النطـاق علـى قطـاع غزة تحت اسم «الرصاص المسكـوب» استـمرت ثلاثة أسابيع، بدءاً من نهاية ديسمبر ٢٠٠٨م.

---

(١) مركز الأسرى، ١١/ ١٠/ ٢٠٠٧م.
(٢) مركز الأسرى، ٨/ ٨/ ٢٠٠٧م.

تأملات في نتائج حرب غزة:

بعد الحرب الأخيرة على غزة تداولت وسائل إعلام عربية أن الحملة كانت مقررة مسبقاً وأن الخطة وضعت قبل عام ونصف العام واختير توقيتها بعناية، وهذا ليس صحيحاً بالمرة، فوضع خطط عسكرية لاقتحام غزة يكاد يكون عملاً يومياً لدى سلطات الاحتلال منذ انسحابها منها عام ٢٠٠٥م، والإعلان عن خطة حرب هو في مجمله قرار سياسي أكثر منه تخطيط عسكري موجود أساساً، والذي حدث أنه بعد تسلم غابي إشكنازي منصب رئيس الأركان أمر الجيش الإسرائيلي بأن يكون مستعداً لعملية في القطاع ابتداء من شهر آذار ٢٠٠٧م، وفي ذاك الشهر أقرت بالفعل خطط عسكرية معدة من قبل[١]، أما الذي أخَّر الحرب حتى نهاية ٢٠٠٨م فكان التردد الكبير لدى قادة الاحتلال في تنفيذها لقناعة غالبيتهم بأنها لن تكون ذات جدوى؛ لسبب بسيط وهو أن الصواريخ كانت تطلق بكثافة من القطاع أثناء احتلاله بصورة تامة من قبل الجيش الصهيوني، ولم تتوقف إلا فترة انسحابه حتى لا تتعرقل العملية، وبعد الانسحاب بثلاثة أشهر تقريباً عاودت الصواريخ انطلاقها في بداية العام ٢٠٠٦م وكأن شيئاً لم يكن، ولذلك ظل رئيس هيئة الأركان معترضاً على الحرب حتى تنفيذها[٢].

منذ نهاية عام ٢٠٠٧م حاولت قيادة الجيش استبدال الحرب بوضع ما سمي وقتها «بنك الأهداف» تقوم من خلاله الطائرات بعمليات قصف مستمرة لأهداف مختارة بعناية داخل القطاع، وظل البنك يقدم خدماته حتى بداية الحرب حيث أشهر إفلاسه قبل أن تضع أوزارها[٣].

---

(١) هآرتس، مركز الناطور، ٨/ ١/ ٢٠٠٩م.
(٢) مختارات إسرائيلية ٢٠٠٨م، مقال د. أشرف الشرقاوي.
(٣) يديعوت أحرونوت، مركز الأسرى، ١٧/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

كان واضحاً منذ بداية الحرب أن العدو يبذل في كل مرحلة جهداً كبيراً حتى لا يضطر للانتقال إلى المرحلة التالية، وعندما بدأ الجنود في الدخول إلى مناطق سكنية على أطراف القطاع كان دخولهم عجيباً «دخل الجيش الإسرائيلي غزة كمن يتخبطه الشيطان من المس. يمشي على البيض. هذا جيد من جهة ما لكنه خطر أيضاً. فعندما يمشي على البيض لا يكون هناك وصول»[١]. أدى ذلك الخوف والترقب إلى «سلق» المراحل تباعاً، وكان السر في كلمة واحدة: «شاليط».

أجهزة الموساد والشاباك والشين بيت وأمان والسي آي إيه والاستخبارات العربية الحليفة التي تنسق مع الاحتلال، وجيش العملاء في غزة والضفة وأجهزة أمن السلطة التي أنفقوا عليها مئات الملايين.. كل هؤلاء عجزوا تماماً عن معرفة مكان الجندي الأسير، بل حتى لا يستطيعون تأكيد هل لا يزال في غزة أم نقل إلى خارج القطاع؟ يقول أحد الخبراء الأمنيين في الكيان معبراً عن إحباطه: «نحن بحاجة إلى معلومات.. معلومات.. معلومات.. بدون توفرها لا يمكننا فعل شيء لشاليط»، وذكر خبير آخر أن: «آسِري شاليط يتمتعون بالمهارة الفائقة، ويتخذون الحيطة والحذر بكل معنى الكلمة، ولا يرتكبون أخطاء، فعلى سبيل المثال إذا أجروا محادثات هاتفية بينهم فهم يجروها بعد أن يتأكدوا بأن لا أحد يتنصت عليهم، وكل محادثة تتم بينهم تتم حسب محادثة مشفرة لا يمكن لأحد أن يقوم بتفكيكها»[٢].

لذا كانت التعليمات واضحة للجنود على مشارف غزة: «احذروا مصير شاليط»، بالنسبة للجنود هم لن يرغبوا أبداً في البقاء في «ضيافة» «حماستان» قريباً من ثلاثة

---

(١) بن كاسبيت، معاريف، ٩١/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الأسرى.
(٢) يديعوت أحرونوت، مركز الأسرى، ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٧م.

أعوام، وبالنسبة للحكومة فإن أسيراً آخر ربما يصيب أولمرت بالفالج.

في ٢٠٠٧/٦/٢٤م - الذكرى السنوية الأولى لاختطاف جلعاد - قال رئيس الوزراء إيهود أولمرت مواسياً «آل شاليط»: «لم يمر يوم إلا وحاولنا وبذلنا جهوداً لعودته إلى البيت، نحن ندرك ما تعانيه عائلته: نوعام وأفيفا شاليط، واصلنا وسنواصل للعمل بكل جهد لتحريره»[١]، لا يحتاج أولمرت إلى ذكرى أسير آخر يحتفل بها كل عام.

من الناحية العسكرية فإن الجيش الصهيوني انسحب قبل أن يبدأ المعركة الحقيقية ويردد قادته على سبيل التغطية مهددين حماس بمعاودة الكَرَّة إذا عاودوا إطلاق الصواريخ، ومضوا دون أن يعرف أحد - حتى داخل الكيان - لماذا جاؤوا ولماذا انسحبوا، وهو ما دفع أحد المعلقين السياسيين في «إسرائيل» إلى أن يقدم رؤية لا بأس بها حول إشكالية النصر في حرب غزة.

يقول تسفي بارئيل: «كيف يُعَرَّف النصر؟ قائد الحظيرة سيكون له جواب، أما رئيس الأركان فله جواب آخر، أما السياسي سيبدأ بالفلسفة: النصر منوط بتعريف الأهداف.. سيكون الرد السهل لدى ثلاثتهم: نحدد أهدافاً غامضة بما فيه الكفاية، مثل: تغيير الوضع الأمني.. وعندها كل واحد يمكن أن يدعي أنه انتصر، إذا توقفت صواريخ القسام: انتصرنا؛ إذا أملينا شروطاً على فتح معبر رفح: انتصرنا؛ إذا استعدنا قوة الردع: انتصرنا. وبشكل عام، الحرب هي معركة مريحة بما فيه الكفاية مع مثل هذه التعريفات..»[٢]

---

(١) يديعوت، ٢٠٠٧/١/٢٥م، مركز الأسرى.
(٢) هآرتس، ٢٠٠٩/١/٤م، مركز الناطور.

لكنه على الجانب الآخر يقدم تعريفاً للنصر مختلفاً عند حماس، فيقول: «لحماس كما يتبين يوجد تعريف آخر للنصر. . تعريفها لمفهوم النصر لا يتعلق بعدد القتلى وبتغيير الوضع الأمني. المرحلة التالية ستكون تحويل الحرب إلى رافعة سياسية داخلية وخارجية، إذ إن ردعها قد حققته لتوِّها. في كل لحظة يمكن لقسامي واحد أن يهز النظام. حماس تفكر سياسياً، إسرائيل لا تزال عالقة في مستوى تفكير قائد حظيرة»[1].

إذن حتى يمكن الخروج برؤية متوازنة نحاول استخدام سقف متغير للأهداف، وعادة ما يميل الطرف الأضعف عسكرياً في المواجهات إلى رفع سقف أهداف خصمه حتى يكون له مجال واسع في إثبات تداعي هذه الأهداف، بينما يحاول الخصم أن يخفض سقف أهدافه ليتناسب النصر مع مقياس الواقع.

فإذا قلنا: إن إسرائيل كانت تهدف إلى إيقاع ضربة قوية بحماس ومؤيديها داخل الحركة وداخل القطاع من المدنيين؛ فإن هذا الهدف قد تحقق لهم ومن ثم فإن حماس لم تنتصر، وإذا أضفنا إلى الهدف السابق هدفاً آخر وهو إجبار حماس على توقيع اتفاق هدنة جديد طويل الأمد وتفعيل قضية شاليط؛ فقد نجحت إسرائيل في ذلك أيضاً، وإذا أضيف هدف ثالث وهو إيصال رسالة إلى حماس مؤداها أن وقف الهدنة بمنزلة إعلان حرب وأن ثمن مواصلة إطلاق الصواريخ سوف يكون على الشاكلة نفسها «عقيدة الضاحية»؛ فإن إسرائيل نجحت أيضاً في إيصال رسالتها بغض النظر عن موقف حماس منها.

لكن إذا أضفنا إلى الأهداف السابقة هدف وقف إطلاق الصواريخ؛ فإن المعادلة

---

(١) السابق.

تأخذ في التغير ؛ فلم تتوقف الصواريخ ؛ وإذا أضيف هدف إنهاء سيطرة حماس على القطاع، أو هدف تدمير الأنفاق لوقف التهريب، أو هدف «تكسيح» الجناح العسكري لحماس؛ فهذه كلها أهداف لم تتحقق في الحرب، ولا أعتقد أن القادة السياسيين أو العسكريين للكيان كانوا يأملون كثيراً في تحقيق هذه الباقة من الأهداف، ولذلك كان هناك تعمُّد واضح في أن تخرج هذه الحرب على نحو غير مسبوق من حيث كونها «حرباً بلا أهداف»، وهو ما أتاح للطرفين «حماس والكيان» أن يثبتا – كل بطريقته – أنه قد انتصر في الحرب، لكن هنا وقفة قصيرة، كان بطل الحرب – لو كان منتصراً – إيهود باراك وزير الدفاع، أفلا يعطي تراجع الحزب الذي يقوده إلى أدنى مرتبة في تاريخه مؤشراً قوياً على مستوى تراجع الجيش الذي يقوده أيضاً؟

والآن نأتي إلى حماس.. ما الذي حققته من هذه الحرب؟ فيما يتعلق بالمواجهات بين جيش نظامي وميلشيا مسلحة؛ تختلف القواعد، وكما يقول وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر: «الجيش التقليدي يخسر إذا لم ينتصر، والعصابة تنتصر إذا لم تخسر»، وحماس لم تخسر واليهود لم ينتصروا.

ثم هناك قضية «حرق الخيارات» التي تمارسها حماس والمقاومة مع الاحتلال الصهيوني بكفاءة عالية، وكما عرضنا سابقاً انقلبت أغلب إجراءات الاحتلال لتصفية المقاومة في اتجاه عكس ما كان يريد، ولم يبق في النهاية إلا خيار الحرب الشاملة، واكتشف قادة العدو أن التهديد بالحرب ربما يكون أكثر تأثيراً من إعلانها بالفعل، وحاولوا لأكثر من عام ونصف العام أن يستخدموا سلاح التهديد، ولكنهم بدلاً من ذلك وصلوا إلى مرحلة حرجة، فإذا لم ينفذوا التهديد على الواقع فإن مصداقيتهم أمام شعبهم على المحك، فكانت الحرب، واحترقت الورقة الأخيرة، وأصبح العدو

في مأزق إستراتيجي . . فلم تعد هناك خيارات، وقَدَّم مفكر يهودي وصفاً يُعد برأيي من أدق ما قيل في تقويم هذه الحرب، قال: «لقد عَرَضَت عملية الرصاص المسكوب على الفلسطينيين وعلى العالم قوة الجيش الإسرائيلي، لكنها تكشف أيضاً عن حدود قوة دولة إسرائيل»[1]، وهذه هي المصيبة الكبرى، وهذا هو سبب الإصرار الصهيوني «المذل» على هدنة دائمة، كما أنه سبب تحول مواقف مسؤولين غربيين من الحركة يحاولون التغطية على «العورة» الإسرائيلية التي انكشفت، وفي مقدمتهم توني بلير مبعوث اللجنة الرباعية، الذي تغير موقفه ١٨٠ درجة. . لقد أصبحت ثغرات الكيان الصهيوني مكشوفة للعيان.

توني بلير الذي امتهن التبعية لأقل الرؤساء الأمريكيين ثقافة وذكاءً؛ تفتق ذهنه في محاربة حماس فتحول إلى مُسَعِّر حرب ضدها؛ فطرح في أكتوبر ٢٠٠٧م خطة أطلق عليها «مشاريع ذات تأثير سريع» لإصلاح الأجهزة الأمنية والجهاز القضائي ووزارة المالية الفلسطينية، ونصت الخطة بشكل واضح على وجوب مضاعفة الأجهزة الأمنية الفلسطينية أنشطتها ضد كلٍّ من حماس والجهاد بالضفة، وذكرت تحديداً أنه: «بدون عمليات صارمة تقوم بها الأجهزة الأمنية الفلسطينية ضد حركات المقاومة الفلسطينية العاملة في الضفة الغربية؛ فإنه لا أمل من إمكانية حدوث تقدم في جهود التسوية السياسية للصراع»، كما توصي الخطة بزيادة عدد المستشارين الأوروبيين الذين يساعدون الشرطة الفلسطينية، بجانب تكثيف عمل طاقم المنسق الأمني الأمريكي الجنرال كيت دايتون المسؤول عن زيادة فاعلية الأجهزة الأمنية الفلسطينية، مع إقامة إدارة جديدة للإشراف على السجون والمعتقلات في أرجاء مناطق السلطة

---

(١) روبيك روزنتل، معاريف، مركز الناطور، ١/ ١/ ٢٠٠٩م.

الفلسطينية[١]، كل ذلك بالطبع خارج قدرة أبو مازن على القبول أو الرفض.

ببساطة اكتشف «العم توني» أنه يُحَصِّن الضفة الغربية ويقويها نيابة عن «العم سام» لكي تتسلم حماس بكل سهولة في أي انتخابات قادمة إنجازاتهم العظيمة بوصفها «أنفالاً»، كانت المفاجأة الكبرى - ومسيرة حماس كلها مفاجآت - أن أغلب استطلاعات الرأي ترجح تزايد شعبية حماس في الضفة والقطاع بدرجة غير مسبوقة، ونشرت مجلة التايم الأمريكية أن استطلاعاً أجري في ٥/ ٢/ ٢٠٠٩م أظهر تزايد شعبية حماس بشكل يسمح لها بهزيمة فتح والفوز في الانتخابات إذا جرت اليوم، كما أظهر أن رئيس الوزراء إسماعيل هنية هو الزعيم الأكثر ثقة في الضفة الغربية وغزة[٢]، وفي استطلاع لمركز القدس للإعلام تبين أن الحرب على غزة «منحت الحركة الإسلامية شعبية غير مسبوقة»، وكتب الصحفي الإسرائيلي «آفي يسسخاروف» في هآرتس مقالاً موحياً بعنوان «يمكن لأبي مازن أن يبدأ بالقلق»[٣].

قبل الحرب بأيام قليلة أكد بلير لصحيفة هآرتس (١٩/ ١٢/ ٢٠٠٨م) أنه «لا يوجد أساس للحوار» مع حماس التي تنكر حق إسرائيل في الوجود، وقال: «إن حل مشكلة غزة يتوقف على إضعاف حماس بشكل جذري»، لكن بعد الحرب بأيام قليلة، قال بلير لصحيفة التايمز البريطانية: إن حماس «لا بد من أن تكون جزءاً من عملية السلام.. من المهم أن نجد طريقة لدمج حماس في عملية السلام بعد أن أصبح حكمها أمراً واقعاً في غزة»، واعترف بلير بالحقيقة «إن عزل غزة وحكومة حماس بالحصار لم يعطِ أي نتيجة، وإذا استمر فإنه يمكن أن يزعزع استقرار الأشخاص الذين

---

(١) إسلام أون لاين، ١٧/ ١٠/ ٢٠٠٧م.
(٢) فضائية الجزيرة، صحافة المنتصف، ٨/ ٢/ ٢٠٠٩م.
(٣) هآرتس، آفي يسسخاروف، صحيفة فلسطين، ١٠/ ٢/ ٢٠٠٩م.

يعملون دائماً من أجل الاعتدال»[1]، قبل ذلك كان الإبقاء على حماس هو المزعزع للعاملين من أجل الاعتدال.

على شاكلة هذا التحول، بدأت ماكينة مراكز الدراسات تخرج أبحاثا ودراسات ينادي كاتبوها بإعادة النظر في الموقف الأمريكي من حماس بعد سيطرتها على غزة، مثلا، ذكر الباحث ريتشارد دبليو. مورفي الخبير بمعهد الشرق الأوسط في حوار أجراه معه برنارد جورتزمانو نشره «مجلس العلاقات الخارجية على موقعه الإلكتروني، إن الولايات المتحدة بمقدورها إحلال السلام بين إسرائيل وفلسطين، إذا لم تضع الحوار مع حماس على قائمة محظوراتها، والاكتفاء بالحوار مع السلطة الفلسطينية كما كان الحال طيلة السنوات الماضية، لاسيما بعد سيطرة حماس على غزة[2].

صواريخ المقاومة والردع النظيف:

في أغسطس ٢٠٠٧م أرسل د. محمود الزهار رسالة إلى صحيفة لندن صنداي البريطانية قال فيها: إن حماس فضلت هجمات الصواريخ عن القيام بعمليات بعبوات ناسفة؛ لأن الصواريخ «تسبب هجرة كبيرة، وتعرقل الحياة اليومية وإدارة الحكومة، ولها كبير الأثر على الجانب الصهيوني الذي يتكبد خسائر فادحة»[3].

إن استمرار إطلاق الصواريخ - أو على الأقل بقاء القدرة على إطلاقها لدى حماس - يعد هدفاً إستراتيجياً بالغ الأهمية بالنسبة للحركة ومستقبلها؛ لأن

---

(١) إسلام أون لاين، ٣١/ ١/ ٢٠٠٩م.

(٢) تقرير واشنطن، ١٤/ ٢/ ٢٠٠٩م.

(٣) موقع تقرير واشنطن، عرض لدراسة مارجريت ويس: أسلحة الإرهاب، تطوير صاروخ القسام وآثاره، ٦/ ٤/ ٢٠٠٨م.

الصواريخ سلاح الردع الأساس الذي تملكه حماس الآن، وإذا فقدته سيعني ذلك انتقالها إلى مرحلة جديدة تماماً في مسيرتها النضالية والسياسية.

ومن الملاحظ أن الجهود الدولية والإقليمية كافة تركزت منذ الفترة التي أعقبت اتفاق أوسلو على حرمان المقاومة من أي سلاح ردع تمتلكه، ويكون لديه قدرة على عرقلة المسار السياسي والمشروع الصهيوني. ومنذ منتصف التسعينيات بدا أن العمليات الاستشهادية تتحول لتصبح سلاحاً رادعاً إستراتيجياً للمقاومة وهو ما تجلى بصورة واضحة لاحقاً في انتفاضة الأقصى سبتمبر ٢٠٠٠م، فكان أن تواكبت الجهود الدولية لاحتواء هذا السلاح منذ ظهور خطورته وهو ما أثمر مؤتمراً عالمياً لمكافحة الإرهاب - وإنقاذ الصهاينة - في شرم الشيخ ١٩٩٦م.

وعندما تحولت المقاومة بعد الانتفاضة إلى سلاح ردع جديد هو الصواريخ بدائية - محلية - الصنع قصيرة المدى؛ بدأت الجهود تتركز من جديد حول جدوى إطلاق الصواريخ، وبدأ الإعلام الرسمي يصيغ خطاباً مختلفاً عن الخطاب الذي صاغه لمواجهة العمل الاستشهادي، واستخدمت عبارات مثل: «الصواريخ العبثية، الألعاب النارية.. إلخ» لتوصيف صواريخ المقاومة، التي لو كانت عبثية ما تداعى لها القوم بهذه الدرجة... والشكل الآتي يوضح تزايد معدلات الإطلاق حتى أبريل ٢٠٠٨م[١].

---

(١) المصدر: مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب.
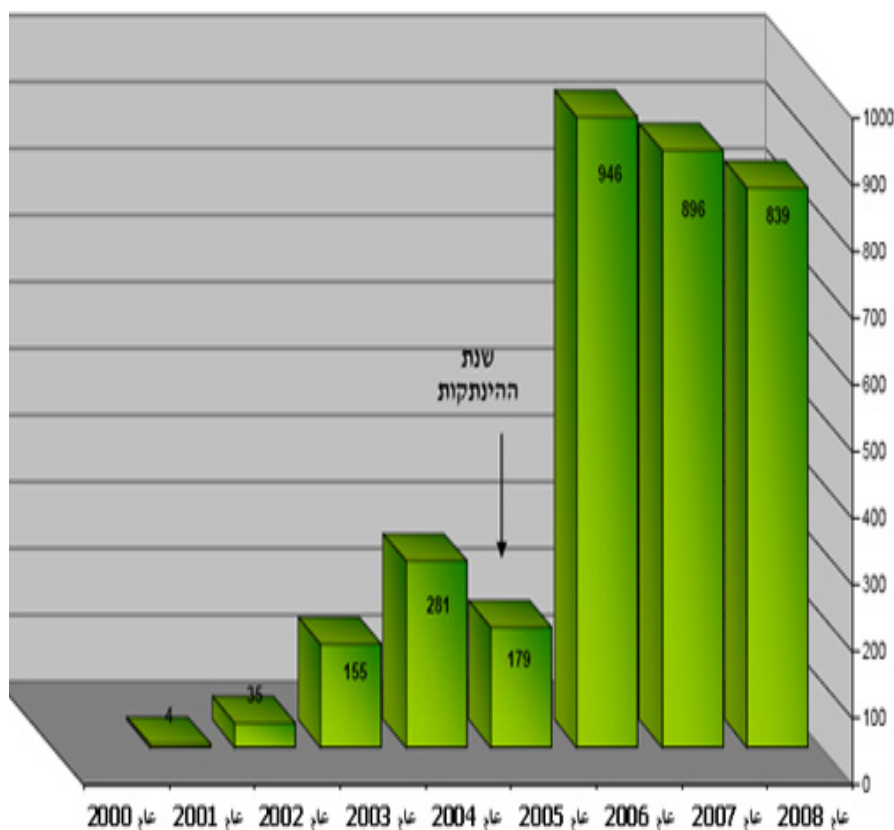
وفي تكرار لأحداث التسعينيات عُقِد أيضاً في شرم الشيخ مؤتمر دولي جديد تحت شعار وقف إطلاق النار في نسخته العربية، بينما كان الزعماء الغربيون يصرحون في بلادهم أنهم قَدِمُوا إلى المؤتمر دعماً لجهود منع تهريب السلاح إلى حماس، ومن ثم حرمانها من قدرة الردع.

فما الذي يميز الصواريخ «العبثية» حتى تُزعج سكان المعمورة في جانبها الغربي؟

يمكن ملاحظة فروقات أساسية بين الصواريخ والعمليات الاستشهادية من خلال الجدول التالي:

م	العمليات الاستشهادية	الصواريخ
١	لابد من التسلل خلف خطوط العدو بحثاً عن نقاط تجمع سكانية.	يتم إطلاقها من المناطق الفلسطينية القريبة نسبياً من الخط الفاصل.
٢	تحتاج إلى فريق يعمل فترة زمنية طويلة نسبياً منذ اختيار المنفذ وتدريبه ثم إعداد المتفجرات وترتيب خطة التسلل ومكان التنفيذ وكيفية عبور الحواجز.	تحتاج إلى طاقم صغير نسبياً، وربما يكفي شخص واحد لإطلاقها(*).
٣	أدى إنشاء الجدار الواقي إلى عرقلتها وتراجع عددها.	لا يؤثر فيها أي جدار مهما بلغ ارتفاعه.
٤	يتمكن العدو عن طريق جثة الاستشهادي من معرفة اسمه وسكنه وانتمائه الفصائلي ومن ثم توجيه ضربة انتقامية لعائلته وفصيله.	لا مجال لمعرفة مطلقي الصواريخ وفي حالات قليلة يتم قصفهم جوياً ولكن دون كشف هويتهم أو انتماءاتهم.
٥	هناك تلازم بين مرحلة الإعداد والتنفيذ، وإذا طالت الفترة الفاصلة بينهما ربما تخفق العملية.	لا تلازم أبداً بين امتلاك الصاروخ وإطلاقه، إذ يمكن تخزينه سنوات حتى موعد التنفيذ، وهو ما يتيح مرونة كبيرة في الرد تعجيلاً وتأجيلاً، وهذا يناسب هدف الردع.
٦	الأثر الردعي مرتبط إلى حد كبير بعدد القتلى والجرحى.	غير مرتبط بعدد القتلى، بل إن عدد قتلى اليهود حسب إحصاءاتهم منذ بدأ إطلاق الصواريخ لا يتجاوز (١٠) قتلى.
٧	عامل الزمن يعمل ضدها.. فمع مرور الوقت تزداد الاحتياطات الأمنية المعيقة للتسلل حتى تصل القدرة أحياناً إلى صفر.	عامل الزمن لصالحها.. فمداها كان لا يتجاوز ٤ كم، الآن يبلغ ٥٠ كم في بعض التقديرات وقابل للزيادة.

(*) للمعلق السياسي الصهيوني بن كاسبيت عبارة بليغة في هذا الشأن: «كل عربي معه أنبوب ومادة يمكنه أن يخرج من بيارة فيطلق صاروخاً ويفر».. معاريف، مركز الأسرى ٢٠٠٩/١/٤م.

الخطورة في إطلاق الصواريخ ليس واقعها الحالي ولكن احتمالاتها المستقبلية، وهذه أبرز الاحتمالات التي تثير الهلع في نفوس الكيان الصهيوني:

١ - المدى الذي يمكن أن تبلغه الصواريخ غير محدود مسافةً وزمناً، ومن ناحية نظرية فإن تهريب صاروخ مداه ٤٠ كم مثل تهريب صاروخ مداه ٧٠ كم أو أكثر، وهذا يؤدي إلى اتساع دائرة التأثير الصاروخية وتمددها لتشمل تل أبيب ومفاعل ديمونة والقواعد العسكرية في النقب ويافا وحيفا.. إلخ، وقد حذر السياسي الصهيوني المخضرم موشيه آرينز من «خطر أن تستغل حماس وقف إطلاق النار للعودة إلى التسلح بصواريخ وقذائف صاروخية، بعضها ذو مدى بعيد.. وستسبب هزيمة ثانية كهذه ضرراً لا يمكن إصلاحه بأمن إسرائيل، وتكون دعوة إلى عدوان أعداء إسرائيل في السنين المقبلة. سيدفع جميع مواطني إسرائيل لا أولئك الذين يعيشون في الجنوب فقط ثمن تطورات كهذه»[١].

هذه التطورات لن تقف عند حد الذعر، ولكنها سوف تتمدد لتؤثر على المجالات كافة، وأهمها في الأمن القومي الصهيوني استمرار تدفق الهجرة من الخارج وتوقف موجات الهجرة المعاكسة، ومن المعروف أن الأزمات تدفع نسبة كبيرة من اليهود إلى الفرار خارج فلسطين، وقد مرَّ الكيان بفترات مماثلة، يتحدث نتنياهو عن إحداها: «لقد شعرنا بمثل هذه الحالة النفسية القومية فعلاً في السنوات التي سبقت حرب الأيام الستة، عندما توقفت الهجرة نهائياً تقريباً وارتفعت نسبة الهجرة المعاكسة من إسرائيل، حتى أصبحوا يتندرون في إسرائيل بالقول: على آخر شخص يهاجر من

(١) هآرتس، مركز الناطور، ٧/ ١/ ٢٠٠٩م.

إسرائيل أن يطفئ أنوار المطار في اللُّدّ»[1].

٢ - توجد سهولة نسبية في نقل التقنية الصاروخية «البسيطة» إلى الضفة الغربية، وهناك محاولات في ذلك تثير الذعر لدى سلطات الاحتلال، وهذا أحد أسباب الحملة المستمرة في الضفة ضد عناصر حماس والجهاد الإسلامي، وربما يكون الوقف المفاجئ للحرب في غزة من قبل الصهاينة سببه ذلك التناوب التاريخي منذ عام ٢٠٠٠م بين غزة والضفة في تقديم الزخم للمقاومة؛ فقبل حملة السور الواقي على الضفة عام ٢٠٠٢م كان الزخم الأكبر للانتفاضة ينطلق من الضفة، وبعد الحملة تحول الزخم إلى غزة، فما الذي يمنع في حال تراجعه في غزة أن يرجع مرة أخرى إلى الضفة، لكن في هذه الحالة سيكون الصاروخ سيد الميدان، وأي قذيفة هاون أو صاروخ «عبثي» لا يتجاوز مداه ٤ كم سيقع حتماً على رأس صهيوني غافل، أقله سيقع على رؤوس الجنود في دوريات حراسة الجدار العازل، عندها سيمنعهم جدارهم من رؤية مطلقي الصواريخ، وسينعكس كيدهم من جديد سهماً في نحورهم، وسيصبح الجدار أَمَنَةً ستاراً يغشى أعين الذين هادوا.

وكانت حكومة الكيان قد وفرت استثمارات هائلة لتطوير نظم دفاعية تؤمن مدنها ضد الصواريخ، مثل: نظام «القبة الحديدية»، ونظام «الصولجان السحري»، لكن المشكلة أن هذه النظم «الهوليودية» لن تجهز للعمل بصورة فعالة قبل عام ٢٠٢٠م، ويتوقع خبراؤهم أن تكون قادرة على اعتراض صواريخ يصل مداها إلى ٧٠ كم، وقد ربط وزير الدفاع إيهود باراك انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية بنجاح تطوير

---

(١) مكان بين الأمم، إسرائيل والعالم، ص٣٤٠ - ٣٤١.

مثل هذه الأنظمة[1].

لكن هذه التقنيات رغم حداثتها تبقى فعاليتها أمراً مشكوكاً فيه، فقد اعتُبِرَت صواريخ باتريوت قبل ذلك أفضل نظام دفاع صاروخي على الإطلاق، فماذا فعلت؟ أثناء حرب الخليج الثانية «أظهرت العديد من الدراسات التي أجريت في إسرائيل والولايات المتحدة بعد الحرب أن المناطق المحمية بصواريخ باتريوت قد تضررت أكثر من المناطق المجاورة التي تعرضت مباشرة لهجوم سكود العراقية دون أي دفاع باتريوتي، كما كشفت دراسة أجرتها وزارة الدفاع الإسرائيلية أن ١٣ صاروخ سكود ضربت تل أبيب قبل نشر بطاريات باتريوت وتسببت في جرح ١١٥ فرداً وإلحاق الضرر بنحو من ٢٧٠٠ شقة سكنية، بينما تسببت صواريخ باتريوت تم إطلاقها لاعتراض أحد عشر صاروخ سكود في جرح ١٦٨ شخصاً وتدمير ما يقارب ٨٠٠٠ شقة سكنية في ضواحي تل أبيب»[2].

٣ - يمكن بمتابعة إطلاق الصواريخ أن تصل المقاومة إلى مستوى «الردع النظيف» عندما يتحقق ردع العدوان الإسرائيلي الاقتصادي والعسكري، بدون أن تحتاج المقاومة إلى إطلاق مستمر للصواريخ، ومن المعلوم أن سلاح الردع يكون في أعلى قدراته الردعية عندما لا يكون هناك حاجة إلى استخدامه، فهو يردع بمجرد امتلاكه، وهذا متحقق بشكل كامل في الأسلحة النووية فقط، ولكن على مستوى الصراع بين حماس والصهاينة فإن معادلة الردع يمكن تطويرها تدريجياً لبلوغ مرحلة قريبة من هذا المستوى، ومع ما يتطلبه ذلك من تضحيات فإن بلوغ هذا المستوى من الردع سيوفر

(١) تقرير واشنطن، دراسة: أسلحة الإرهاب، سابق.
(٢) الإسرائيليون الجدد، ص١٦.

غطاءً أفضل لحياة الفلسطينيين اليومية، والأمر قريب، خاصة أنه في حالة إقرار هدنة العام ونصف العام فإن الهدنة ستكون مستمرة لأكثر من عامين متتاليين مع انقطاع بسيط.

ويساعد المقاومةَ في مهمتها القابليةُ العالية عند اليهود للإصابة بالذعر، فرغم علمهم بالأثر التدميري المحدود للصواريخ إلا أن ما يُروى عن مظاهر خوفهم منها يثير الدهشة، وعندما «أطلق العراق ٤١ صاروخاً ضد إسرائيل كانت حصيلتها موت ١٣ شخصاً معظمهم نتيجة إصابته بالسكتة القلبية أو الاختناق أو القلق بينما توفي واحد فقط نتيجة إصابة مباشرة»[١]، «وتقول إحصائيات رسمية أن ٤٤٪ من مجموع سكان تل أبيب البالغ مليون نسمة قد هجروا مدينتهم وتركوا ديارهم هرباً من صواريخ سكود»[٢].

أما سكان سديروت التي حظيت بـ «نصف الصواريخ التي أُطلِقت وسقطت على مناطق مأهولة»[٣]؛ فقد اضطرت الحكومة إلى تخصيص مبالغ طائلة لمساعدتهم على تجاوز الأزمة، فقامت بإرسال مئات من سكانها اليهود للاستجمام في فنادق طبريا وإيلات لمعالجة آثار الهلع من الصواريخ، مع تلقيهم مبالغ مالية لها تأثيرها في طبع اليهود[٤]، كما وافقت بلدية تل أبيب على مطلب الملياردير اليهودي الروسي «كايدماك» القاضي بإقامة معسكر خيم لسكان سديروت في منطقة حدائق «يهوشوع» في تل أبيب هرباً من صواريخ المقاومة، لكن بلدية القدس رفضت مطلب

---

(١) الإسرائيليون الجدد، ص١٢.
(٢) السابق، ص٩.
(٣) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٩/ ١/ ٢٠٠٨م.
(٤) هآرتس، مركز الأسرى، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٧م.

«كايدماك» بإقامة معسكر خيم لهم في حديقة «ساكر» في القدس واتهم مسؤولون في البلدية «كايدماك» بأنه يريد جعل سكان سديروت متسولين[1].

ونقلت صحيفة يديعوت أحرونوت وصفاً تفصيلياً لحالة السكان بعد سقوط صاروخين فقط في إحدى الأمسيات، نقلاً عن عن المستوطنة «ميخال أمسالم» التي تسكن بالقرب من المكان الذي سقط فيه الصاروخ الأول: «لقد سمعت دوي انفجار شديد جداً، كل شيء من حولي كان يهتز، اعتقدت أن الصاروخ سقط في أحد المنازل المجاورة لبيتي، خرجت من باب منزلي لأقدِّم المساعدة، ولكن ابني الذي يبلغ من العمر ١٤ عاماً وجدته يصرخ بعنف ويقول: أمي لقد صوحني الصاروخ، أنا لا أسمع جيداً من أذني.. وعندما وقفت على باب بيتي وجدت شبان الحي يفرون في كل اتجاه يبحثون عن مأوى وقد أصابتهم حالة من الهستيريا فالكل يريد أن ينجو بنفسه»، أما الصاروخ الثاني فسقط في كلية سابير خلال تقديم طلبة الكلية الامتحانات الصيفية، ويقول الطلبة: عندما سمعنا انفجار الصاروخ تركنا الامتحانات وتوجهنا بسرعة نحو ملاجئ الكلية، ويقول أحدهم: «لن نقدم الامتحانات هنا المرة القادمة، سنقدمها خارج سديروت، الأمر أصبح تعيساً جداً»[2].

الخبر الذي يُفرح المقاومة أن عدد الصواريخ لم يعد مهما لإحداث حالة الرعب: «إن الوضع الآن أصبح أسوأ مما كان عليه قبل انخفاض عدد الصواريخ الفلسطينية التي كانت تسقط على المدينة، لا يهم إن سقط في اليوم صاروخ واحد أو ٣٠ صاروخاً، فالنتيجة واحدة، جميع المحلات التجارية مغلقة، ومن يفتح محله للبيع لا يجد من

---

(١) هآرتس، ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٧م.
(٢) مركز الأسرى، ٢٣/ ٧/ ٢٠٠٧م.

يشتري منه، وكل من يمتلك الأموال اصطحب أسرته واستأجر شقة خارج سديروت، وفقط الفقراء بقوا في المدينة»[1].

٤ - ألقت الصواريخ بالجيش الصهيوني في حلقة مفرغة، وهو ما أشعر قادته بالإحباط، وهذا باعتراف مركز معلومات الاستخبارات والإرهاب؛ وهو موقع شبه رسمي على الإنترنت ينقل عن أجهزة الكيان الرسمية، وسبب الإحباط أن «سباق الردع» مع فصائل المقاومة وبالأخص حماس تنتهي بفوز المقاومة، إذ يتكرر الوضع وفق ثلاثة أنماط: تطلق المقاومة عدة صواريخ وقذائف هاون - يقوم الجيش الصهيوني بالرد - تبادر المقاومة إلى إطلاق أكثر كثافة للصواريخ... وهكذا لو أراد الجيش تخفيضاً سريعاً لعمليات الإطلاق فالأفضل أن يمتنع عن الرد، لكنه لو امتنع عن الرد سيستمر الإطلاق.. وهكذا، وقد نشر الموقع المذكور شكلاً يلخص هذه المعضلة.. ننقله تالياً.

(١) من كلام أحد سكان سديروت، يديعوت أحرونوت، فلسطين اليوم ٧/ ٦/ ٢٠٠٧م.

الحلقة المفرغة للتصعيد في إطلاق الصواريخ وقذائف الهاون :
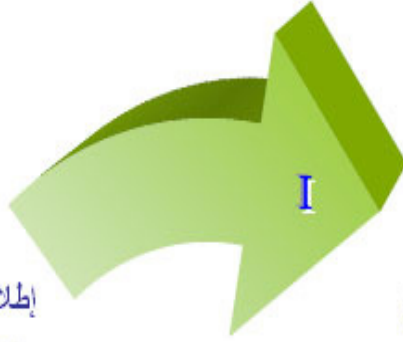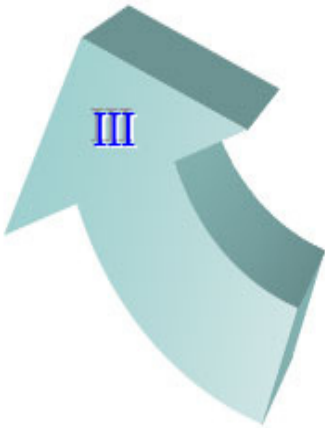
خامساً: مشروع الدولة الإسلامية:

جاء في المادة الحادية عشرة من ميثاق حركة المقاومة الإسلامية حماس: «تعتقد حركة المقاومة الإسلامية أن أرض فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، لا يصح التفريط بها أو بجزء منها أو التنازل عنها أو عن جزء منها. هذا حكمها في الشريعة الإسلامية»، وجاء في المادة الثالثة عشرة «فالتفريط في أى جزء من فلسطين هو تفريط في جزء من الدين، وفي هذا الإطار الدولة الواحدة تعني سيادة الإسلام على كل الأرض الفلسطينية»[١].

وإشكالية المنشأ الديني لحماس بالنسبة للكيان الصهيوني تتبلور في أمرين؛ أولهما: طريقة تعامل الحركة مع الاحتلال والوسائل التي تتبعها لتحقيق أهدافها، وثانيها: شكل الدولة التي يمكن أن تقام في فلسطين تحت حكم حماس.

وفيما يتعلق بآلية التعامل فهي - كما سبق - اعتماد المقاومة كخياراً إستراتيجياً لتحقيق الأهداف، فإن حماس «تنظر إلى نفسها من منطلق أنها امتداد طبيعي لا للإخوان فحسب بل أيضاً لجميع حلقات الجهاد الفلسطيني ضد الغزو الصهيوني. ولذلك فهي تتصل وترتبط بانطلاقة الشهيد عز الدين القسام وإخوانه المجاهدين»[٢].

وهذا النمط من المقاومة ذات الطابع الإسلامي تثير الذعر لدى «الإسرائيليين»؛ لعلمهم بصعوبة التعامل معها أو وقفها أو احتوائها، «محاربة المقاومة من هذا النوع هي شيء معقد.. يوجد ها هنا طراز متميز من منظمة الإخوان المسلمين، يسيطر على الدولة مع تزوده بوسائل قتالية كبيرة وبلا حدود.. إذا ترددت إسرائيل

---

(١) انظر: حماس الفكر والممارسة السياسية، الملاحق.
(٢) حماس الفكر والممارسة السياسية، ص ٩.

أو خافت فسيعلم العالم العربي كله، وسيعلم جميع الشهداء الذين يتكونون بإزائنا؛ أن إسرائيل قابلة للمس، وغير مصممة ولا مستعدة للمحاربة عن وجودها»[١].

وبعد فوز حماس في الانتخابات بدأ كتّاب إسرائيليون يوجهون لوماً «منتقداً للإدارة الأمريكية بسبب اعتقادها أن الديمقراطية سوف تفضي لتغيير جذري في الشرق الأوسط، وأن الإرهابيين لو اتجهوا إلى صناديق الاقتراع فإنهم أوتوماتيكياً سوف يتحولون إلى ديمقراطيين، وقالوا: إن واشنطن أخطأت عندما اعتقدت أن دمج هيئة أو مؤسسة إرهابية في عملية سياسية ديمقراطية سوف يفضي إلى تراجع الإرهاب»[٢].

وأدَّت «أسلمة» المقاومة على يد حماس والجهاد الإسلامي إلى تأثر فصائل أخرى بهذا الطابع واتباعها له خوفاً من استحواذ حماس على الشارع الفلسطيني، فـ «استُعمِلت خلال المواجهة المصطلحات الإسلامية الواضحة في اليافطات وفي إعلانات الحداد على الإرهابيين الانتحاريين. ويدل هذا الأمر - حسب تقديراتنا - على أسلمة المواجهة العنيفة الحالية»[٣].

وأخطر ما في هذه الأسلمة بالنسبة للكيان الصهيوني أنها تُكسِب الفلسطينيين - بوصفهم شعباً - قدرة كبيرة على المقاومة والثبات وتحمل التضحيات، وأذكر أن أحد الفلسطينيين في غزة في الحرب الأخيرة بعدما قُتِل أولاده ظهر في تقرير إخباري

---

(١) بن كاسبيت، معاريف، ٩/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الأسرى.
(٢) إسلام أون لاين، نقلاً عن الكاتب زئيف شيف من هآرتس، ٢/ ٢/ ٢٠٠٩م.
(٣) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ٣/ ١/ ٢٠٠٦م.

وهو يصرخ ويردد شعارات دينية خاصة بحماس، ويقول: «حرقونا في الأمم المتحدة حرقونا.. ولادنا ماتوا.. ست ولاد ماتوا لي في الأمم المتحدة في مدرسة الوكالة.. الله أكبر.. الله أكبر ولله الحمد»[١].

أما بالنسبة لشكل الدولة الفلسطينية تحت حكم حماس فلا يوجد لدى الصهاينة شك في أنها ستكون ذات طابع إسلامي، « لا تستطيع إسرائيل أن تقوم اليوم بتنازلات للفلسطينيين في يهودا والسامرة، في حين أن حماس قد تستولي في كل لحظة على رام الله، كما استولت على غزة. سيُطرد أبو مازن وسيُعلن أن هنية رئيس فلسطين الحُرة، وستُؤمر النساء بأن يُغطين وجوههن بالبراقع، وسيُلزم الرجال إعفاء اللحى، وستسقط صواريخ القسام - وصواريخ الكاتيوشا أيضاً في يوم من الأيام - لا على سيدروت فقط بل على نتانيا، وكفار سابا، ومطار بن غوريون أيضاً»[٢].

ويصفها المعلق بن كاسبيت بأنها ستكون «الدولة الوحيدة في العالم التي يحكمها الإخوان المسلمون»[٣]، ويقول: إن حماس «تتبنى الإبادة المطلقة لدولة إسرائيل وتحويل أراضيها إلى أرض وقف وخلافة إسلامية. هذه إيديولوجيا حماس، ولا غيرها»[٤].

سادساً: الاعتراف:

«الحركة لم تتنازل عن أملها في اختفاء الدولة الصهيونية، وستواصل الانتظام

(١) فضائية الجزيرة.
(٢) تومي ليبيد رئيس حزب شينوي سابقاً، معاريف، ١٥/ ٨/ ٢٠٠٧م، مركز الأسرى.
(٣) معاريف، ٥/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور.
(٤) معاريف ٥/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور.

والعمل من أجل ذلك في الخفاء، ولكن في المرحلة الحالية تحتاج حماس إلى هدوء كي تعيد بناء المنطقة التي تحت سيطرتها. والخطة بعيدة المدى لحماس في اختفاء إسرائيل لا يجب أن تخيفنا، علينا أن نكون على علم بها وألا نفقد يقظتنا»[١].

إن عدم اعتراف حماس بالكيان الصهيوني وتمسكها بالميثاق الذي يتضمن زوال دولة «إسرائيل» يسبب للصهاينة إزعاجاً شديداً، وهم حاولوا مرات كثيرة طوال مسيرة حماس أن يحصلوا على اعتراف من الحركة بوجود الكيان، ووصلت المطالبة أحياناً إلى حد التسول، فهم اعتادوا مع فتح غير ذلك، فقد كان عرفات يستجدي اعترافاً من الولايات المتحدة التي كانت تشترط اعترافاً بالكيان، فقدَّمه لهم على طبق من ذهب.

ويذكر الكاتب اليهودي يوسي ميلمان أن «أن إسرائيل.. لم تحظ بمجرد فرصة ضئيلة لبلوغ تفاهم مع حماس»[٢]، وفي أواخر سنة ١٩٨٩م قام رئيس الإدارة المدنية الإسرائيلية في قطاع غزة باستدعاء الدكتور محمود الزهار وبحث معه في موضوع تأليف الوفد الفلسطيني للتفاوض مع إسرائيل (قبل مؤتمر مدريد)، واقترح أن تُمَثَّل حماس في هذا الوفد شريطة أن تعترف بحق إسرائيل في الوجود، ولما رفض الزهار العرض هدَّده رئيس الإدارة المدنية بالاعتقال.

وقبل اتفاق أوسلو صرَّح وزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيريز بأن الإسرائيليين «مستعدون للتفاوض مع متطرفين من حماس إذا انتُخِبوا بحرية في

(١) درور زئيفي، يديعوت أحرونوت، ٤/ ٧/ ٢٠٠٧م، مركز الأسرى.
(٢) الإسرائيليون الجدد، ص ٢١٤.

الأرض المحتلة» .

وبعد اتفاق أوسلو وبعد عمليات حماس العسكرية في سنتي ١٩٩٣ و١٩٩٤م أعلن أكثر من مسؤول صهيوني - كان أهمهم رئيس الحكومة الأسبق إسحاق رابين - استعداد حكومته للحوار والتفاوض مع حماس، كما عُرِض على عدد من مسؤولي الحركة المعتقلين إطلاق سراحهم وتسفيرهم من أجل التفاهم مع قيادات الخارج في مطالب إسرائيل بوقف العمليات العسكرية .

وكان رد حماس الثابت على هذه المحاولات هو الإعلان عنها وكشفها ورفضها، وذكرت الحركة في بيان لها بهذا الخصوص رفضها تصريحات رابين بالاستعداد للحوار معها، وقال البيان: إن اللغة التي بيننا وبين عدونا المحتل ستبقى دائماً هي لغة المقاومة والصراع وليست لغة المفاوضات أو التنازلات أو الاستسلام[1]. وتكرر كثيراً على ألسنة قادة الحركة أن فلسطين كلها يجب أن تتحرر، وفي حوار مع الشرق الأوسط (١٨/ ٨/ ٢٠٠٥م) قال د. محمود الزهار: إنه لا توجد من وجهة نظره مدن «إسرائيلية» بل مستوطنات «إسرائيلية»، وقال الزهار أيضاً في تصريح آخر: إن حماس حتى لو شاركت في المجلس التشريعي فإنها «لن تعترف بدولة إسرائيل ولن تعترف بالاتفاقيات الموقعة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية»[2].

وأصاب اليأس قادة الكيان من حدوث حوار مع حماس، وبعد فوزها في الانتخابات قال نتنياهو في مقال بعنوان: «حركة طالبان هنا»: «حماس ستظل نفسها

---

(١) انظر في ذلك: حماس، الفكر والممارسة السياسية، ص ٢٢٧-٢٢٨-٢٢٩ .
(٢) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ١٨/ ١/ ٢٠٠٦م .

حماس. ولا يمكن التوصل معها إلى تفاهمات؛ لأن الحركة تدعو إلى إبادة دولة إسرائيل»[١]. وهناك صحفي آخر بدأ يدعو إلى التعامل مع الحقيقة المرة، وهي أن حماس لن تعترف: «الحقيقة البشعة هي أنه ليس بيننا وبين حماس حوار. بل لن يكون. يوجد مونولوغ (حديث مع الذات) لحماس وصمت إسرائيلي. فهي تخطب ونحن نركض نحو المجال المحصن»[٢].

جاء في برنامج حماس الانتخابي أن الشعب الفلسطيني جزء لا يتجزأ من الأمة العربية والإسلامية. . الإسلام هو مرجعية الحياة بكل مكوناتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية. . فلسطين جزء من الأرض العربية والإسلامية وهي حق للشعب الفلسطيني لا يزول بالتقادم، ولا يغير من ذلك أي إجراءات»[٣].

ويقدم الأكاديمي أنتون لاجارديا مقاربة تفسر جزءاً من الحقيقة حول ما يمكن تسميته «رهاب الاعتراف» لدى الصهيونيين، يقول: «أفضل ما يمكن قوله في العداء ضد الفلسطينيين هو أنه كراهية ممزوجة بالخوف. ليس ما يفعله الفلسطينيون وحده هو ما يقلق إسرائيل بل الفلسطينيون أنفسهم كشعب يطالب بالأرض نفسها التي يطالب بها اليهود. شعب ضعيف رفض أن يندثر تماماً كما لم يمح اليهود من التاريخ. تخشى إسرائيل التحدي الذي يطرحه الفلسطينيون على شرعيتها الأخلاقية وتخشى أن تفقد ركونها الحصري إلى العذاب، كما تخشى أن ترغم بدورها على أن تعترف بالمأساة

---

(١) مركز دراسات الشرق الأوسط، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٢) يونتان يفين، يديعوت أحرونوت، ١/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور.
(٣) السابق.

التي سببتها للفلسطينيين. إنه خوف من أشباح الماضي، خوف من أن يعود جسد الفلسطينيين الميت ليظهر بعد عقود على قتله العمد أو غير العمد وَفْق نظرة كل واحد إلى التاريخ»[1].

(١) أرض الميعاد لمن؟ ص٣٦١. مع الاعتراض بالطبع على مصطلحات مثل: شرعيتها الأخلاقية، أو جسد الفلسطينيين الميت.

الفصل الثاني:

حماس والعرب

حرب المسؤوليات:

إنها حرب موازية تدور رحاها في اتجاه معاكس، حرب إلقاء المسؤوليات، حرب البحث عن ستار ودثار يخفي العورات ويطمس الثغرات، وكان الستار المفضل في الإعلام العربي «الرسمي» و «شبه الرسمي» هو حركة حماس، حماس هي المسؤولة عن الدماء التي سالت في غزة وتسيل في الضفة، وهي المسؤولة عن تعثر جهود السلام وعن الفصل بين الضفة وغزة، وهي المسؤولة عن ضياع حل الدولتين، وهي المسؤولة عن تدهور العلاقات العربية - العربية، وهي المسؤولة عن العنف «الإسرائيلي»، وهي المسؤولة عن ضياع القضية الفلسطينية، وعن إثارة الشارع العربي ضد أنظمته. . . هل بقي شيء بعد؟ . . «حماس مطالبة وبسرعة بأن تكفر عن أخطائها الجسام في حق الفلسطينيين وفي حق القضية الفلسطينية برُمَّتها، وفي حق مصر والمصريين جميعاً وفي حق كل من عاندتهم لمجرد أنهم قدموا لها خير النصيحة. إن هذا الأمر لا هو صعب ولا هو مستحيل إنه واضح كالشمس في منتصف النهار»[1].

تعددت الأوصاف التي أطلقت على الحركة وقادتها، فهم: خونة، لا يهتمون

---

(١) حسن أبو طالب، مقال: أي انتصار لحماس، مركز الأهرام للدراسات، ٢١/ ١/ ٢٠٠٩م.

إلا بالبيزنس، مشعل ورفاقه هم الذين تآمروا على قتل ياسين والرنتيسي، الخلافات الداخلية على المصالح تمزقهم، إحدى الصحفيات قالت: إنها تشعر أن غزة بخير عندما تنظر إلى إسماعيل هنية، إنهم يقبعون في مخابئهم آمنين، إنهم يتاجرون بالقضية الفلسطينية. .

لكن أحداً منهم لم يذكر لنا كيف يتاجر ابن نزار ريان بالقضية بينما يرفض حضور جنازة والده وإخوته لأنه مرابط على جبهة القتال؟ أو لماذا أصرت زوجتا ريان على التدثر بلبس ثقيل والمبيت مع زوجهن في منزله بعدما تلقى التهديد الإسرائيلي بتدميره؟ أو لماذا لم يشتر الزهار حياة فلذتي كبده اللذين قُتِلا تحت الأنقاض طالما أنه «بيزنس مان»؟ ولماذا تخلى أحمد الجعبري نائب رئيس كتائب القسام عن ابنه محمد - ٢٢ عاماً - وتركه يموت؟ ولماذا يعيش أبناء أبو مازن في عالم البيزنس وشركات الهواتف المحمولة، بينما يعيش أبناء أبو العبد في صعيد غزة بين أنقاضها ونعوشها المحمولة؟!

غاية ما هنالك أن قوم لوط يتبرمون، وقديماً عندما بحثوا عن عيب في نبيهم قالوا: ﴿**أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [**النمل**: ٥٦]. . إنه الطهر السياسي الذي بات مرفوضاً في العالم العربي. . الجديد؛ لأنه عيب في الذات العربية.

إن «فوضى المسؤوليات» هذه لا بد من أن تقود إلى التساؤل عن المسؤولية الأعظم: كيف ضاعت فلسطين؟ أو من المسؤول عن ضياعها؟. . إنه تاريخ ليس بالقديم، بل تاريخ الآباء، ولمَّا يصبح بعد تاريخا للأجداد، فأي مواطن عربي عمره سبعون عاماً فأكثر كان شاهداً على ما حدث، و «الاهتمام بالسياسة فكراً أو عملاً

يقتضي قراءة التاريخ أولاً، لأن الذين لا يعرفون ما حدث قبل أن يولدوا محكوم عليهم أن يظلوا أطفالاً طول عمرهم»[١].

هذه مقتطفات من تاريخ فلسطين والعرب تم انتقاؤها بعناية من مصادر موثوقة لتعطي دلالات واضحة وتحدد بعلامات بينة: من المسؤول عن ضياع فلسطين؟ ومن ثم من يُفترض به أن يصمت الآن خجلاً مما فعل بالقضية؟

ومضات تاريخية:

إن ارتباط المسلمين ببيت المقدس يمتد عبر التاريخ إلى مئات السنين، يستوي في ذلك أهل المشرق وأهل المغرب، لقد سالت دماء مئات الألوف من المسلمين من كل مكان في هذه البقعة المباركة، ومن ثم ليس لأحد أن يحتكر قضيتها لنفسه، ولا لأحد أن يفاخر بما قدمه لها، فهناك دوماً من قدَّم أضعاف ما قدَّم.

وقبل استعراض تلك الومضات التاريخية ننبه إلى ما يلي:

١ - أثبتت الشعوب دوماً أنها تسبق حكامها في دعم قضية فلسطين.

٢ - لم يكن تفاعل حكومات عربية مختلفة مع القضية بدافع ذاتي، بل كان في معظمه اضطراراً للاستجابة للضغوط الشعبية أو تجنباً لها أو تحايلاً عليها؛ لذلك ظل الأداء السياسي منسجماً مع هذا الدافع وليس مع المصلحة العليا للقضية.

٣ - لم يتمكن العرب في أي وقت منذ تأسيس الكيان أن يوقفوا مخططاته ومؤامراته، رغم كل القمم التي عقدت منذ أول قمة في إنشاص - مصر - عام ١٩٤٦م والتي كان سبب انعقادها العمل على وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين. .

(١) حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ١ / ١٩.

فهل توقفت؟

٤ – تأتي قضية تسليح الفلسطينيين وتأهيلهم لمقاومة الاحتلال من أهم الأسباب التي أثرت سلباً في ضياع فلسطين سابقاً، وتؤثر سلباً في ضياع القضية حالياً.

تروي لنا كتب التاريخ مدى ارتباط المغاربة – الذين هم من أبعد المسلمين عن تلك البقعة – بقضية القدس والمسجد الأقصى منذ الحروب الصليبية، يروي لنا الدكتور ممدوح حسين في كتابه القيم «الحروب الصليبية في شمال إفريقيا وأثرها الحضاري» قَبَساً من تَعلُّق المغاربة ببيت المقدس، يقول:

«نستطيع القول: إن المغاربة ومن ضمنه أهل إفريقية قد أسهموا بنصيب مرموق في الحروب الصليبية التي دارت رحاها في الشرق، ومنذ السنوات الأولى لوصول الصليبيين إلى بلاد الشام انخرط كثير من المغاربة في سلك القوى الإسلامية التي تصدت للغزاة، ولم يكن هؤلاء المجاهدون المغاربة بطبيعة الحال جيوشاً منظمة أرسلتها حكوماتهم لنصرة إخوانهم، ولكنها كانت جهود أفراد وجماعات كانت تأتي إلى المشرق لأغراض عدة؛ أهمها: الحج أو علم الطب أو التجارة أو خصيصاً للجهاد، وكان هؤلاء حينما يرون احتدام المعارك بين المسلمين والصليبيين تهزُّهم الحمية ويلقون بأنفسهم في أتونها، فركبُ الحجاج المغاربة الذي كان يصل سنوياً إلى المشرق ويضم الآلاف؛ كان العديد منهم بعد أدائه فريضة الحج يتوجه إلى بلاد الشام إما لزيارة الأماكن المقدسة فيها كالمسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي في الخليل وغيرهما أو تجنباً للمرور بمصر خوفاً من التعرض لأذى حكامها الفاطميين أيام دولتهم، يقول ابن الأثير في ذلك: (إن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب

مصر الاعتقاد القبيح فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر)، فكان من تواتيه الفرصة من هؤلاء أن يقرن فريضة الحج بالجهاد لا يدعها تفوته. . وقد وجد من بين المغاربة من كان يقسم عمره سنة في الأندلس - للجهاد - وسنة في المشرق يقيم بينهما سنة في أهله. . ونظراً لشدة بأسهم وحسن بلائهم في القتال رغب حكام المشرق من المسلمين فيهم وعملوا على إلحاقهم بجيوشهم.

وكان عددهم في جيش صلاح الدين أثناء حصاره لمدينة عكا سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م يقدر ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مغاربي. . . وكانت نكاية هؤلاء المغاربة بالعدو شديدة مما أحفظه عليهم وبالغ في الإساءة إليهم، حتى إنه فرض على المارين منهم بالبلاد الواقعة تحت سيطرته دفع ضريبة رأس عن كل فرد دون غيرهم إمعاناً منه في القسوة عليهم. . . وفي ذلك يقول ابن جبير: وقال الفرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم فللمغاربة في أداء هذا المكس سببه من الذكر الجميل في نكايتهم العدو»[1].

ويقول أيضاً: «اشتهر الكثير من هؤلاء المغاربة الذين قصدوا المشرق وجاهدوا الصليبيين في ساحات القتال، مثل: عبد السلام المغربي الذي كان قائداً لأسطول صلاح الدين الذي حاصر مدينة صور، والفقيه يوسف بن دوناس الغربي شيخ المالكية في دمشق الذي خرج للجهاد حينما هاجم الصليبيون دمشق سنة ٥٤٣هـ إبّان الحملة الصليبية الثانية فحاول معين الدين أنر وزير الدولة البورية في ذلك الوقت ثنيه عن عزمه نظراً لكبر سنه وضعفه قائلاً له: يا شيخ! أنت معذور ونحن نكفيك وليست

---

(١) الحروب الصليبية، ص١٨٢ - ١٨٣.

بك قوة على القتال، قال: قد بعتُ واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] الآية، وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند النيرب»[١].

ويشير د. ممدوح حسين إلى معلومة غاية في الأهمية: «كان من أهداف الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع على تونس احتلال إفريقية لقطع الاتصال بين الطرفين» أي: بين المشرق والمغرب الإسلاميين[٢].

ويقول أيضاً في دلالة على مستوى التكافل وحب الناس للمجاهدين: «ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية؛ أن كل من يُخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يُعَيِّنُها في افتكاك المغاربة خاصة لبُعْدهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، حتى إن نور الدين زنكي نذر حينما أصابه مرض أن ينفق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة وفعلاً وفي بهذا النذر حينما شفي إذ أرسل في فدائهم، فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة قائلاً: إن هؤلاء يَفتكُّهم أهلهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم»[٣].

وبعد استعادة صلاح الدين لبيت المقدس أَسكَن المغاربة فيما أصبح يُعرف لاحقاً بـ «حي المغاربة» واستأمنهم عليه وأن لا يؤتى المسلمون من قبلهم، فاستبسلوا في ذلك حتى تتابع التاريخ وتَسَلَّم العرب المعاصرون أمانة بيت المقدس، فاحتله اليهود

(١) السابق، ص١٨٥.
(٢) السابق، ص١٨٥.
(٣) السابق، ص ١٨٦ - ١٨٧.

وهدموا حي المغاربة وأقاموا على أنقاضه ساحة «حائط المبكى»، وجعلوا باب المغاربة هو بابهم الذي يدخلون منه إلى المسجد.

في عام ١٨٤٢م توجه الواعظ النصراني الأمريكي ديفيد ميلارد إلى فلسطين مدفوعاً بكتابات العهد القديم عن «أرض الميعاد» وعودة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، وبعد زيارته كتب هذه الملاحظات: «إذا ما جاء وقت يعود فيه اليهود ويمتلكون أرض آباءهم فإن تصادماً مهماً ينبغي أن يحصل أولاً مع الأمم والقبائل التي تحيط بها، فالأرض في الوقت الحاضر يسكنها العرب المولودون فيها وهؤلاء يحرثون الأرض ويشكلون معظم السكان في المدن والقرى، السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تصادر الأرض من هؤلاء السكان؟ هل هناك تفكير في شرائها؟ وأية قوة تفرض هذا الشراء؟ وإلى أين يهاجر السكان الحاليون؟ أم هل من تفكير في طردهم بالسيف؟ أنا مقتنع أن الأرض لا يمكن إخلاؤها من سكانها إلا بهذه الوسيلة - الطرد بالسيف - ولكن في هذه الحالة سوف يُرغم السكان الأصليون على العودة إلى القبائل العربية التي تحيط كالهلال بجنوب وشرق الأرض المقدسة... سوف يتلقون دعماً من القبائل الأخرى ويهجمون من وقت إلى آخر لينهبوا البلاد ويخربوها، وفي هذه الحالة لن يتمكن اليهود من حماية أنفسهم وسوف يقعون فريسة لقبائل إسماعيل ولن يتمكن أي جيش قوي تدعمه قوى أوروبية من حمايتهم»[1]. ويبدو أن ميلارد كان يُفرط في حسن ظنه بـ «التلاحم العربي».

وفي عام ١٩٠٧م توصل قادة الدول الاستعمارية الأوروبية من خلال دراسة معمقة قامت بها لجنة مختارة من علماء التاريخ والقانون والسياسة من بريطانيا وفرنسا

---

(١) أرض الميعاد لمن؟ ص ٤٥٤ - ٤٥٥.

وبلجيكا وهولندا والبرتغال وإسبانيا، توصلوا إلى أهم الأسباب التي يمكن أن تحول بين الاستعمار الأوروبي والزوال أو الانهيار، فقالوا في دراستهم إن: «الخطر الضخم يكمن في البحر المتوسط، فهذا البحر هو همزة الوصل بين الغرب والشرق، وحوضه مهد الأديان والحضارات، ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تتوفر له وحدة التاريخ والدين واللسان وكل مقومات التجمع والترابط، فضلاً عن نزعاته الثورية وثروته الطبيعية، فماذا تكون النتيجة لو نقلت إلى هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانيات الثورة الصناعية الأوروبية وانتشر التعليم فيها وارتقت الثقافة، إذا حدث ما سلف فستحل الضربة القاضية حتماً للاستعمار الغربي وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي:

١ - على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة وتأخرها وإبقائها على ما هي عليه من تفكك وتأخر وجهل.

٢ - ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوي وغريب يحتل الجسر البري الذي يربط آسيا بإفريقيا بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار وعدوة لسكان المنطقة[١].

كتب الشيخ عبد الحميد السائح رئيس المجلس الوطني الفلسطيني السابق في مذكراته، يروي لمحات من ضياع فلسطين، في الفترة التي أعقبت قرار التقسيم وإعلان إنهاء الانتداب البريطاني في مايو ١٩٤٨م ثم إعلان تأسيس الكيان واندلاع

---

(١) إسرائيل.. الرؤساء، ص٢٩ - ٣٠، ويلاحظ أنه التصور نفسه الذي وصل إليه لويس التاسع من قبل عندما أراد احتلال شمال إفريقيا.

الحرب الأولى بين العرب والصهاينة، يقول السائح: «حين أقرت جامعة الدول العربية دخول الجيوش العربية فلسطين كان رأي بعض زعماء العرب ألا تشارك الجيوش العربية، وألا تدخل فلسطين وأن تكتفي بمساندة الشعب الفلسطيني بالسلاح والمال، وقالوا: إذا انتصر الشعب الفلسطيني سيكون انتصاره نصراً للعرب، وإذا هُزِم تكون هزيمة له وحده لا للدول العربية مجتمعة، حينئذ نبقى من خلفه نسانده وندعمه. وفي الحقيقة فقد دخلت الجيوش العربية فلسطين من دون إرادة قتال حقيقية واستعداد كاف».

ويقول: «ولو أن الجيوش الرسمية العربية قامت بحماية الجزء العربي من قرار التقسيم؛ لقلنا: إنها دول أعضاء في الأمم المتحدة اضطرت إلى تنفيذ قرار الهيئة الدولية، لكنها مع الأسف لم تحافظ حتى على حدود التقسيم، بل قابلت تجاوز اليهود حدود التقسيم بالصمت وعدم التحرك الفاعل، وهو الأمر الذي دعا الرئيس الأمريكي ترومان إلى القول: إن ما أخذته إسرائيل بموجب قرار التقسيم إنما أخذته بالشرعية الدولية، وما أخذته متجاوزة ذلك فقد أخذته بما سماه حق الفتح وفرض السيطرة والهيمنة بالقوة».

وحول قدرة الجيوش العربية على القتال يقول: «أما الجيوش العربية فلم تقم بواجبها كاملاً لا حشداً ولا تدريباً ولا استعداداً للمعركة الفاصلة ولا دعماً الفلسطينيين ليقاتلوا بأنفسهم، وقادة هذه الجيوش لم يكونوا من الإيمان بالقضية الفلسطينية والحق الفلسطيني لدرجة أن يقاوموا الاستعمار، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار علاقتهم بالاستعمار واعتمادهم عليه، فبقيت هذه الجيوش هزيلة ضعيفة».

وعن دور الشعوب العربية يقول: «كانت الشعوب العربية مؤمنة بعدالة القضية

وراغبة في التصدي للعدو لولا الظروف والأوضاع لمحيطة بهم، ومع هذا فقد كان الشعب العربي سباقاً على الحكومات في وعي الخطر الصهيوني لدعم الشعب الفلسطيني، الذي لو سلَّحوه في البداية تسليحاً جيداً ودرَّبوه لاستطاع أن يفيد أكثر من الجيوش العربية، ولمنع ربما إقامة الدولة اليهودية ووأدها في مهدها، ولكن للأسف تخلت الأنظمة العربية عن تسليح الفلسطينيين وتدريبهم ومساندتهم المساندة الحقيقية؛ لذلك كانت النتيجة الحال التي ما زلنا ندفع ثمنها حتى الآن تشرداً وتشتتاً وعذابات وتضحيات، بل أصبحت الدول العربية نفسها تدفع ثمن أخطاء الماضي أمام التوسع الصهيوني وأطماعه فيما يتعدى فلسطين».

وعن فلسفة التعامل العربي مع فلسطين بعد أن تحولت من «بلد» إلى «قضية» ثم تحولت القضية إلى «منظمة»؛ يقول الشيخ السائح: «وظهر فيما بعد أن موافقة العرب على وحدانية تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني كانت بمثابة المخرج لهم من تحمل مسؤولياتهم تجاه الشعب الفلسطيني وقضيته، مع أنه كان الأجدر بهم إذا صدقت النيات أن يدعموا المنظمة ويسلحوها وأن يستعد العرب جميعاً للوقوف أمام العدو الإسرائيلي متضامنين»[١].

ونختم هذه الومضات من كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، حيث ينقل حسنين هيكل موقفاً ذا دلالة حدث عام ١٩٤٨م يبين مستوى التعاطي العربي مع القضية وخطورتها، يقول: «كان تحت القيادة العليا التي يتولاها الملك - عبد الله ملك الأردن - قيادة عامة للجيوش العربية أُسْنِدت إلى اللواء العراقي إسماعيل صفوت باشا، وقد وضعت هذه القيادة خطة طموحة على الورق لكن الذين وضعوها

---

(١) انظر فلسطين. . لا صلاة تحت الحراب، مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح، ص ٥٧ - ١٠٦.

أنفسهم كانوا يعرفون مسبقاً أنها مستحيلة التحقيق، فالقائد العام صفوت باشا لم تكن له في حقيقة الأمر أي سلطة على بقية الجيوش العربية؛ لأن هذه الجيوش سوف تكون باستمرار في يد حكوماتها التي كانت لكل منها حسابات خاصة تختلف أكثر مما تتفق، وكان إسماعيل صفوت باشا ضابطاً لم يعش تجربة ميادين القتال وقد ترقى إلى رتبته الرفيعة كما هي الحال في معظم الجيوش العربية في موقعها بحكم الأقدمية وبتقدير أنه ضابط مأمون لا يتجاوز تفكيره حدود خرائطه.

والواقع أن إسماعيل صفوت باشا خسر قيادته قبل أن يمارسها؛ فقد حدث قبل أسبوع من بدء القتال أنه خرج من الفندق الذي يقيم فيه في القاهرة وهو فندق شبرد القديم ليتريض قبل أن يحضر اجتماعاً للجنة العسكرية لجامعة الدول العربية وبجوار سوق الأزبكية شاهد اللواء صفوت باشا مجموعة صغيرة من المارة يلتفون حول رجل يلعب معهم لعبة الثلاث ورقات - قمار شعبي - ووقف القائد العام للجيوش العربية يشاهد ما يجري، ويبدو أن اللعبة أثارته فشارك فيها وفي عشر دقائق كان اللواء صفوت باشا قد خسر كل ما معه من نقود وكان مبلغ ٢٨٦ جنيهاً، ولم يكتف صفوت باشا بخسارة أمواله وإنما دخل في مشادة مع لاعب الثلاث ورقات وصلت إلى قسم بوليس الأزبكية وتعطل القائد العام للجيوش العربية عن حضور اجتماع اللجنة العسكرية، وحين وصل إليه متأخراً كانت تفاصيل حادثة النصب التي وقع ضحيتها قد سبقته إلى هناك وكانت دليل شؤم مبكر.

ومن مجمل الأوضاع وحقائقها أن الملك عبد الله مارس دور القائد الأعلى دون أن يكون بجانبه قائد عام ميداني ينسق العمليات بين الجبهات العسكرية المشتركة، وفي واقع الأمر فإن هذه المهمة انتهت بطريقة عملية إلى يد الجنرال جلوب باشا وإلى رئيس

أركان حربه البريجادير برود هيرست، وكان مزعجاً أن تكون مقاليد العمل العربي العسكري في هذه اللحظات الحاسمة في يد مجموعة من الضباط الإنجليز»[1].

إذن، لماذا حماس؟

ولا يزال التاريخ يعيد نفسه إلى الحاضر، لا تزال الشعوب هي الأكثر حضوراً، ولا يزال النظام العربي الرسمي على حاله، يرفض دعم المجاهدين ويعقد القمم التي لا تسفر عن شيء، ويدندن حول «يجب أن تبقى القضية الفلسطينية حية» وهو شعار يتردد في بعض الفضائيات الرسمية على سبيل الدعاية، لكن: ألم يكن الأولى أن يحافظوا على فلسطين نفسها حية؟ وهل يؤتمن على حياة القضية من أضاع أصلها؟

في أي قضية تحرير لأرض مغتصبة تكون المقاومة المسلحة هي الورقة الأولى، لا يمكن تخيل تحرير بدون مقاومة، إن كانت الدولة المغتصبة «طيبة» ويمكن أن ترحل بالمفاوضات؛ فلماذا جاءت تحتل الأرض أصلاً؟ على أي شيء يفاوض المفاوض العربي إن لم يكن لديه مقاومة موجودة على الأرض؟

أصبح دور العرب الآن معروفاً في المآسي الفلسطينية، فهم يقومون بدور «الحانوتي» أو «سيارات الإسعاف» أو «شركات المقاولات» هناك تقسيم للعمل؛ إسرائيل تهدم وتقتل وتصيب، والأشقاء العرب جاهزون بالتوابيت وسيارات الإسعاف وعمليات إعادة الإعمار، كل يعرف دوره وحجمه الحقيقي، ولا يتجاوزه تحت أي ضغوط وكله من أجل «أهلنا في غزة».

انقلبت التصورات والتقويمات في تفكيك معادلة (الاحتلال - المقاومة) القديمة

---

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ١/ ٢٤٩ - ٢٥٠.

المحفوظة، بدلاً من أن يكون أداء المقاومة رد فعل على الاحتلال تصبح قسوة الاحتلال رد فعل على فعل المقاومة، ومن ثم يتوجه النقد إلى المتهور المتطرف الذي «أيقظ العملاق»، أما «العملاق» نفسه فلا تثريب عليه؛ لأنه «عملاق»، ونحن في عالم يحترم العماليق، وهذه معادلة توازن جديدة لا يفهمها «متدينو» حماس الغارقون في أفكار المساجد وأوهام الماضي.

يلعب «آل حماس» دور «آل لوط» عليه السلام، إنهم يمثلون الضمير الحي الذي يؤرق ويقلق، ولذلك يبقى الحل القديم مطروحاً دائماً: أخرجوهم من قريتكم، من معادلتكم، من سياساتكم، من دعمكم... إلخ.

إن العلاقة بين حماس بوصفها حركة المقاومة الأولى في فلسطين حالياً وبين الدول العربية؛ تمر بحالات شد وجذب، يختلف فيها المعلن عن الخفي، وتحكمها عوامل خاصة تؤثر في طبيعتها ويتوقف عليها تحديد الموقف العربي الرسمي من الحركة سلباً وإيجاباً، ونحاول في المحاور القادمة استعراض أبرز هذه العوامل.

أولاً: عقدة الإخوان المسلمين:

تحتل مصر بوصفها أكبر دولة عربية، وبحكم دورها المباشر في قضايا الأمة الحيوية؛ مكانة كبيرة وقدرة على التأثير بمواقفها وأساليبها وأفكارها وتجاربها، ومن التجارب التي انتقلت إيجاباً من مصر تجربة الإخوان المسلمين في ثلاثينيات القرن الميلادي الماضي بوصفها دعوة انتشرت في معظم البلاد العربية، لكن مع تدهور العلاقات بين الجماعة ونظام عبد الناصر في عقدي الخمسينيات والستينيات وتعرضهم لسياسات قمعية قاسية؛ انتقلت تجربة المواجهة لتستقر سلباً في الخلفية الثقافية للنظام

العربي الرسمي، وبات يُنظر إلى الجماعة في بعض الدول العربية بوصفها خطراً ينبغي تجنبه واحتواؤه، وقد انعكس ذلك على حماس بوصفها نشأت من رحم الإخوان الفلسطينيين كما ينص ميثاقها على انتمائها للجماعة وعلى كونها «جناح من أجنحة الإخوان المسلمين في فلسطين».

بدأ حضور الإخوان المسلمين في فلسطين منذ العام ١٩٣٥م عندما زار كل من «عبد الرحمن الساعاتي شقيق الإمام حسن البنا، ومحمد أسعد الحكيم» فلسطين في إطار زيارة دعوية شملت سورية ولبنان أيضاً، وأسفرت الزيارة عن إقامة بعض الفروع للجماعة في فلسطين، لكن البداية الأكبر كانت عام ١٩٤٣م عندما تأسست «جمعية المكارم» بوصفها أول هيكل تنظيمي معلن يعمل الإخوان الفلسطينيون من خلاله[١].

شارك الإخوان مشاركة فعالة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨م سواء كانوا مصريين أو فلسطينيين وغيرهم، وأدى ذلك إلى بروز الوجه «الجهادي» للجماعة فأعلنت بعض الجهات الغربية نذير الخطر، ونشرت صحيفة صنداي ميرور البريطانية في العام نفسه مقالاً كتبته اليهودية روث كاريف، وترجمته صحيفة المصري القاهرية وقتها، ومما قالته الكاتبة: «الآن وقد أصبح الإخوان المسلمون ينادون بالاستعداد للمعركة الفاصلة التي توجه ضد التدخل المادي للولايات المتحدة في شؤون الشرق الأوسط، وأصبحوا يطلبون من كل مسلم ألا يتعاون مع هيئة الأمم المتحدة؛ فقد حان الوقت للشعب الأمريكي أن يعرف أي حركة هذه»، وقالت أيضاً: «إذا كان المدافعون عن فلسطين - تقصد اليهود - يطالبون الآن مجلس الأمن بإرسال قوة دولية لتنفيذ مشروع

---

(١) حماس، الفكر والممارسة، ص ١٢ - ١٣.

التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة؛ فإنهم لا يطالبون بذلك لأن الدولة اليهودية في حاجة إلى الدفاع عن نفسها، ولكنهم يريدون إرسال هذه القوة الدولية إلى فلسطين لتواجه رجال الإخوان المسلمين وجهاً لوجه، وبذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقي الذي تمثله هذه الحركة»[١].

وبعد سقوط فلسطين في أيدي اليهود؛ انفصل فرع الإخوان الفلسطينيون في الضفة ليرتبط بإخوان الأردن، أما إخوان غزة فظلوا هم القوة الأبرز في القطاع وتوقفوا عن الارتباط عضوياً مع إخوان مصر، وتنامى استقلالهم عن المركز الرئيس أو عن أي فرع آخر[٢]، أي: أن العلاقة بين إخوان مصر وإخوان غزة توقفت عن التطور إلى مستوى الاندماج كما حدث في الأردن والضفة، حتى عام ١٩٥٥م، ورغم عدم الارتباط العضوي أو التنظيمي إلا أن إخوان غزة باعتبار أن القطاع كان خاضعاً للإدارة المصرية وقتها تعرضوا لما تعرضت له الجماعة إبّان حكم عبد الناصر، وأدت السياسات الأمنية إلى «تفرق الإخوان وتشتت تنظيمهم.. وانفضَّ رؤساء وأعضاء إدارات الشعب وذوو الأسماء والوزن العلمي أو الاجتماعي ولم يبق إلا أعداد قليلة من الشباب الصغار الذين كان معظمهم من الطلبة وبعض المدرسين والعمال»[٣].

بعد حرب ٦٧ احتُلّت الضفة والقطاع ووصل الارتباط بين الداخل الفلسطيني وأفرع الإخوان في الخارج إلى حده الأدنى، وظلت الأوضاع على هذا المنوال حتى بعد عودة الجماعة في مصر إلى ممارسة أنشطتها مع بداية السبعينيات، وعقب تأسيس

---

(١) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، كامل الشريف، مصطفى السباعي، ص ٤٧ - ٤٨ - ٤٩.

(٢) حماس، الفكر والممارسة، ص ٢١.

(٣) السابق، ص ٢٤.

حماس عام ١٩٨٧م لم يتغير شيء إذ ظلت الضفة والقطاع تحت الاحتلال حتى عام ١٩٩٣م حيث انسحب الاحتلال جزئياً حسب اتفاق أوسلو، إلا أنه لم ينسحب تماماً من داخل القطاع إلا عام ٢٠٠٥م وظل كما هو في الضفة، وكل ما حدث أنه ترك إدارة شؤون الحياة اليومية للسلطة الفلسطينية.

حتى ذلك التاريخ لم تحدث بين حماس والنظام في مصر أي احتكاكات، ولم يكن لمصر علاقة إيجابية أو سلبية مع قيادة الحركة بالخارج، فلم تقدم لها دعماً ولم تظهر لها حرباً، وعندما تصاعدت حدة المواجهات بين أجهزة أمن السلطة وحماس في غزة؛ رددت بعض المصادر معلومات حول استعانة تلك الأجهزة بالخبرة المصرية في التعامل مع الإخوان أمنياً.

دخلت مصر على خط المصالحة بين حماس وفتح بالأخص بعد فوز حماس بالانتخابات عام ٢٠٠٦م، وتفاقم الخلاف السياسي بين الحركتين، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الشد والجذب وتبادل الاتهامات المحسوبة على الأقل من قبل حماس حول حيادية التدخل المصري في إدارة المصالحة، وبات السؤال المطروح هو: هل من مصلحة مصر أن تستلم حماس السلطة في الأراضي المحتلة؟ هل كانت عملية إدارة المصالحة تستهدف جمع الفريقين المختلفين - فتح الضعيفة ذات المنحنى الهابط، وحماس القوية ذات المنحنى الصاعد - أم أنها كانت عملية احتواء وإسناد - احتواء لحماس وإسناد لفتح - يمكن أن تتطور لاحقاً إلى عملية تغيير لدفة النفوذ داخل الضفة والقطاع؟

حرص الطرفان - مصر وحماس - على إبقاء الهواجس والأسرار تحت الطاولة، وأتيح إعلانها فقط بوصفها تسريبات إعلامية هنا وهناك، لكن لم يصل مستوى

العلاقات إلى حد التفعيل الرسمي البروتوكولي، فلم يتم التعامل مع مسؤولي حماس بروتوكولياً بعد فوزهم في الانتخابات وتوليهم مناصب رسمية.

وبعد سيطرة حماس على القطاع في عملية الحسم يونيو عام ٢٠٠٧م، اتخذت العلاقة منحى آخر؛ فقد أصبحت حماس على حدود مصر، وتغيرت النظرة تماماً؛ لكن مع بقاء جهود المصالحة كما هي من حيث استمراريتها وكما هي من حيث عقم نتائجها.

ورغم أن تاريخ العلاقة بين حماس ومصر لم يحمل أي منغصات من قبل الحركة أو تجاوزات؛ إلا أن الهواجس المصرية ظلت تتفاقم بعد عملية الحسم، ثم بعد اقتحام الحدود لعدة أيام عند معبر رفح من قبل السكان المحاصرين في غزة في الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٨م، وشنت وسائل الإعلام المصرية حملة قاسية على الحركة، واتهمتها بمحاولة «غزو مصر»، ودعا بعض الباحثين في مركز الأهرام للدراسات - حكومي - المسؤولين إلى عدم «التفريط الذي يصل إلى درجة التغاضي عن الغزو الفلسطيني للأراضي المصرية تمهيداً لاحتلال سيناء، والتفريط في التغاضي عن قتل مصريين على يد الجماعات الفلسطينية الإسلامية»[١].

عندما شارفت حرب غزة ديسمبر ٢٠٠٨م على الانتهاء نشرت صحيفة هآرتس تصريحات للواء عاموس جلعاد رئيس القسم السياسي في وزارة الدفاع الصهيونية يقول فيها: إن مصر تعدُّ حركة حماس بمنزلة عدو لها يشكل تهديداً لنظامها، وقال جلعاد: إن المسؤولين الذين التقاهم أبدوا «تفهماً شديداً» للحملة العسكرية التي قامت بها

---

(١) طلعت رضوان، مقال: المشروع الصهيوحمساوي لاحتلال سيناء، مختارات إسرائيلية ٢٠٠٨م.

إسـرائيـل فـي القطـاع، وأن مصـر بهـذا السلـوك غـير المسـبوق – على حد تعبيره – تتبنى موقفاً شديد الحزم إزاء حركة حماس، وهو الأمر الذي يعني أنها أصبحت غير مستعدة لأن تقدم لها أي شيء من مطالبها، خصوصاً فيما يتعلق بفتح معبر رفح»[1].

كما نقل أليكس فيشمان المعلق السياسي في صحيفة يديعوت أحرونوت أن مسؤولي وزارة الدفاع «الإسرائيلية» أصبحوا يتبادلون الابتسامات بعدما أدركوا أنه لو كان الأمر منوطاً بحماس لاتفقت مع عاموس جلعاد لوقف إطلاق النار؛ لأن مصر هي التي أصبحت تتشدد معها، واستشهد في ذلك بادعائه أن المسؤولين المصريين الذين يتباحثون مع ممثلي حماس يعرضون عليهم شروطاً متصلبة تدعوهم إلى الاستسلام بلا شروط، وهذه الضغوط المصرية هي التي أصبحت تؤخر وقف إطلاق النار في غزة؛ لأن مصر أصبحت تريد شيئاً واحداً هو إعادة أبو مازن إلى القطاع، والاعتراف بالتمديد له بوصفه رئيساً للسلطة، ويقول فيشمان بعد هذه المعلومات: «المسألة الآن ليست فيما إذا كانت حماس مستعدة للوفاء بمطالب إسرائيل، وإنما فيما إذا كانت مستعدة للاستجابة للمطالب المصرية الأكثر تشدداً»[2].

سواء كانت هذه المعلومات صحيحة أو كانت تسريباً مقصوداً من المسؤولين «الإسرائيليين» فإن تضافر مؤشرات أخرى من هنا وهناك ربما يعطيها مجالاً للتصديق، فعلى سبيل المثال: ظهر د. مصطفى الفقي رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشعب المصري في فضائية الجزيرة متحدثاً عن سياسة مصر في التعامل مع معبر رفح، وفي سياق كلامه قال: «أنا أعتقد أن إسرائيل قاربت الانتهاء من مهمتها»...

(١) مقال فهمي هويدي: معلومات أم افتراءات، موقع صامدون.

(٢) السابق.

ثم تدارك الأمر سريعاً، وعَقَّب «بعد المجزرة طويلة المدى التي حدثت . . »[١]، إذن هناك مهمة يعرفها المسؤول المصري وحسب تقديراته - وقتها - فهي أوشكت على الانتهاء!

على الجانب الأردني:

كانت الأمور أقل صخباً، فلم تمر جماعة الإخوان الأردنية بمرحلة قمع مماثلة لما حدث في مصر، لكن حدثت عمليات شد وجذب مع عناصر حماس المقيمين في الأردن بصفة رسمية بسبب عمليات الدعم والتمرير للمقاومة وأنشطة الجماعة في الداخل والتي كانت تمر عبر الأردن، فحدثت عمليات اعتقال ودهم عدة مرات على مدار سنوات متتالية ١٩٩١م، ١٩٩٥م، ١٩٩٩م، حتى بلغت الأحداث حدها الأقصى عندما اعتقل أعضاء المكتب السياسي عام ١٩٩٩م وانتهت الأزمة بترحيلهم خارج الأردن ما عدا إبراهيم غوشة.

ورغم التداخل بين حماس وإخوان الأردن فإن الحركة مستقلة تماماً في تمويلها وقراراتها وانتخاباتها التنظيمية وبرامجها ومواقفها[٢].

وذكرت بعض التحليلات أن الأردن لا يريد إعادة تكرار تجربة فتح والفصائل الفلسطينية في نهاية الستينيات والتي انتهت نهاية دامية، لكن وجهة نظر أخرى ترى أن استحضار التاريخ أحياناً يكون: ليس خوفاً منه ولكن للإخافة به، فكل التقديرات المنصفة لا يمكن أن تضع حماس على الخط نفسه في هذه القضايا مع فتح.

---

(١) فضائية الجزيرة، برنامج ما وراء الخبر، ١٢/ ١/ ٢٠٠٩م.

(٢) انظر: ملف الأردن، حماس، الإخوان.. إعادة رسم العلاقة بين أطراف المثلث، ٦/ ١٢/ ١٩٩٩م، إبراهيم غرايبة، إسلام أون لاين.

ومرة أخرى برزت «عقدة الإخوان» فقد أدت الاعتقالات إلى ردة فعل قوية داخلياً وخارجياً وكشفت عن مستوى شعبية الحركة داخل الأردن حتى بين الفلسطينيين غير المتدينين[1] – هذه المزية يلاحظ أنها لصيقة بحماس سواء كان ذلك داخل فلسطين أو خارجها – وكان ما حدث مؤشراً على قدرة الحركة على تجميع الرأي العام الفلسطيني خارج فلسطين، وهو مؤشر له دلالاته المستقبلية.

وبالنسبة للإعلام فإن حماس تتعرض لانتقادات مماثلة في الأردن، يغلب عليها الطابع الموسمي، وبعضهم لا يزال مصراً على التعامل مع انتساب الحركة إلى الإخوان كأنه تهمة يسوق الأدلة عليها رغم النص عليها في ميثاق الجماعة.

وكتب صالح القلاب الإعلامي الأردني والوزير السابق في الشرق الأوسط تحت عنوان «معنى التزام حماس مجدداً بقسم الإخوان المسلمين»، وينقل فيه بعض ما حدث في احتفالية حماس بتأسيسها عام ٢٠٠٨م، ويشير إلى تقدم أحد عناصر الجماعة – عبد الفتاح دخان – إلى المنصة وترداده لقسم الإخوان المعروف، ثم يقول الكاتب: «وهذا يعني أن حركة حماس قد كشفت بعد إحدى وعشرين سنة عن وجهها الحقيقي وعن أن قائدها الفعلي ليس خالد مشعل المتنقل بين طهران ودمشق والدوحة وإنما محمد مهدي عاكف المرشد العام والذي هو في الوقت ذاته رئيس التنظيم العالمي»[2]. وكما يبدو من السياق فإن ترداد هذا القسم أعتقد أنه إجراء روتيني يتكرر كل عام في احتفال الجماعة بذكرى تأسيسها، ولكنه التضخيم الإعلامي الممجوج الذي يحتقر عقل القارئ.

---

(١) السابق.

(٢) الشرق الأوسط، ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

الدولة الدينية - السلطة - نظرية الدومينو:

حماس تريد السلطة وتسعى إليها بقوة، وعندما تصل إليها فإنها ستقيم إمارة إسلامية، بعدها ستنتقل «العدوى» إلى دول أخرى، أو على الأقل المشاكل...

هذه أحد المخاوف التي يبديها مسؤولون عرب يرفضون تماماً أن تقام «إمارة إسلامية» في غزة بجوارهم، ولأن المقاومة هي سلاح حماس الرئيس وطريقها السريع إلى قلوب الجماهير ومشاعرهم أصبحت المقاومة في قفص الاتهام وأصبح الاستسلام والخنوع في مقام المدعي العام «جرَّب العرب الحروب فلم تزدهم إلا خبالاً وخساراً، وجرَّبوا المقاومة المسلّحة فلم تزدهم إلا رهقاً وتشتتاً وضياعاً. حماس تنطلق من رؤية جماعة الإخوان المسلمين التي تريد الوصول إلى السلطة بأي ثمنٍ والمحافظة عليها بأي سعرٍ، حتى لو كان الثمن دماء الفلسطينيين ودمار غزّة، وأن يخربوا بيوت الفلسطينيين»[1].

وحذر د. مصطفى الفقي في تصريحه الشهير بأن مصر «لن تسمح بقيام إمارة إسلامية على حدودها الشرقية»[2]، هذا التصريح كرره عبد الله كمال رئيس تحرير مجلة روز اليوسف المصرية في لقاء جمعه مع محمد نزال على قناة العربية، كان رد نزال قوياً ومباشراً: «إذن لماذا تسمح مصر بقيام إمارة يهودية على حدودها الشرقية؟»[3].

في مركز الأهرام للدراسات كتب باحث آخر متخصص في الهجوم على حماس يقول: «حماس لم تعد تنظر إلى قطاع غزة باعتباره جزءاً من الأراضي الخاضعة

(١) عبد الله بن بجاد، صحيفة الاتحاد الإماراتية، ١/ ١/ ١٤٣٠هـ.
(٢) إخوان أون لاين، ٩/ ١٢/ ٢٠٠٨م.
(٣) قناة العربية.

للسلطة الوطنية الفلسطينية التي يرأسها محمود عباس، ولكن باعتباره إمارة إسلامية يرأسها خالد مشعل فيما يرأس حكومتها إسماعيل هنية»[١].

صاحب مقال «المشروع الصهيوحمساوي في سيناء» كتب ينتقد: «أتباع الفصائل الإسلامية الذين يروّجون في الصحافة وفي الفضائيات العربية لضرورة إعادة الفتح الإسلامي لمصر؛ لأن المصريين ما زالوا يعيشون عصر الجاهلية الحديثة»، وطالب الباحث «أن يكون المعيار في العلاقات الخارجية هو السيادة الوطنية وليس المعيار هو العاطفة.. التي تتجاهل خطورة الأصولية الإسلامية لدى أتباع حماس»[٢].

لماذا حماس مختلفة؟

حتى الآن لم تثبت ضد حماس أي تهمة حول تدخلها في شؤون داخلية لأي دولة عربية ترتبط معها بعلاقة كاملة أو جزئية، ولو كانت لما خفيت، بل إن خصوم حماس لا ينتظرون اكتشاف ما هو حقيقي غير معلن، إذ يبادرون باختراع ما يعنّ لهم من تهم وشبهات يلصقونها بالحركة داخلاً وخارجاً، وقد كشف فوزي برهوم الناطق باسم حماس أن فتح أنشأت لجنة خاصة باسم «لجنة الإشاعة» يرأسها أحمد عبد الرحمن أحد الناطقين باسم الحركة، وتلقت اللجنة مبلغ ٨٠٠ ألف دولار من واشنطن من أجل إثارة الإشاعات ضد حماس لتشويه سمعتها حول علاقاتها الخارجية وتمويلها واختراقات عناصر من القاعدة للقطاع.. إلخ[٣].

---

(١) صبحي عسيلة، حماس تحاصر الضفة الغربية، مركز الأهرام للدراسات، ٧/ ١٢/ ٢٠٠٨م.
(٢) طلعت رضوان، مقال: المشروع الصهيوحمساوي لاحتلال سيناء، مختارات إسرائيلية ٢٠٠٨م.
(٣) الشرق الأوسط، ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

ليس عسيراً إثبات أن حماس مختلفة عما يزعمون، ونسوق ملمحَيْن فقط، أولهما: تجربة الحركة مع النظام السوري، والثاني: مقارنتها مع حركة فتح.

أولاً: بالنسبة للتجربة السورية:

نجحت حماس في نسج علاقاتها مع النظام السوري دون تطرق لخلفية علاقة النظام مع الإخوان السوريين، وبغض النظر عن الموافقة أو المخالفة لهذا المسلك، فإن نجاح الحركة في تجاوز هذه الإشكالية يثبت تمسكها بنهجها الثابت بعدم التدخل في شؤون الدول، وعلى الجانب المقابل، وهو الأكثر أهمية، فإن اقتناع النظام السوري بأن حماس لن تتدخل في شؤونه ليس سهلاً أبداً، فلا يزال حتى الآن حكم الإعدام لكل من يثبت انتماؤه للإخوان قائماً، ولا تزال جماعة الإخوان السورية هي الجهة الأكثر والأقوى في معارضتها لنظام الأسد، ويقيم في سورية عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين يمكن أن يشكلوا قاعدة شعبية مثيرة للاضطرابات، كما أن وجود هذا العدد الكبير من قادة حماس يستلزم إجراءات أمنية مشددة، ويجعل دمشق ساحة مخترقة من أجهزة الاستخبارات وفي مقدمتها الموساد.

ثانياً: المقاربة الفتحاوية:

أثارت فتح منذ نشأتها أزمات كثيرة في كل مكان استقرت فيه عناصرها السياسية والعسكرية، وساهمت بأخطائها في حدوث كارثة المواجهات في الأردن نهاية الستينيات، ثم ساهمت بأخطائها أيضاً في توافق قوى إقليمية على ترحيل الفصائل الفلسطينية من لبنان واختلال المعادلة الطائفية فيه، ثم ساهمت بأجهزتها الأمنية في تهديد أمن عدد من الدول العربية والإسلامية، على النحو الذي كشفته وثائق

تلك الأجهزة في غزة والتي نشرت حماس جزءاً منها، فقد تحولت إلى استخبارات للإيجار مستغلة الجالية الفلسطينية الموجودة في عدد كبير من الدول.

وعلى الحدود المصرية مع غزة أثار الفتحاويون الفوضى أضعاف ما حدث إبّان انهيار الجدار الحدودي مطلع ٢٠٠٨م، فقد أثارت المجموعات المسلحة المنتمية لفتح والتي يعمل بعضها في أجهزة الأمن فوضى عارمة مخطط لها، وانتشرت الفوضى في الضفة الغربية وقطاع غزة، واستمر المسلحون في مهاجمة المكاتب والمنشآت التابعة للسلطة، ووصلت هذه الحوادث إلى ذروتها من خلال المواجهة العنيفة مع قوات الأمن المصرية في معبر رفح في يناير ٢٠٠٦م، حيث حاولت المجموعة المنتمية إلى فتح - كتائب شهداء الأقصى - اقتحام المعبر باتجاه مصر احتجاجاً على اعتقال أحد قادتهم للاشتباه في ضلوعه بخطف ثلاثة مدنيين بريطانيين بتاريخ ٣١ كانون الأول، وأغلق المسلحون الممر الحدودي لعدة ساعات وسيطروا على أربعة مباني تابعة للسلطة، ونتج عن المواجهات مقتل جنديين مصريين وإصابة ٢٥ آخرين، ونظَّمت حماس مسيرات احتجاجية على هذه الحادثة[١]، ولم يضخم الإعلام في مصر ما حدث ولم يقل: إن فتح تسعى إلى غزو مصر واحتلال سيناء.

عقدة الإخوان «العَلْمانيين!»:

إن تتبع تاريخ العلاقة بين العَلْمانية والحركة الإسلامية منذ نشأتها وحتى الوقت الحالي؛ يطرح تساؤلاً حول ما إذا كانت «العقدة» من حق الإسلاميين أم العَلْمانيين؟

كان العَلْمانيون هم الظالمون، لا شك في ذلك والتاريخ شاهد، والمحطات الفلسطينية كثيرة.

---

(١) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ١٨/ ١/ ٢٠٠٦م.

عندما انتهت حرب فلسطين بنهايتها المأساوية وبدأ فدائيو الإخوان المسلمين يتجهزون للعودة؛ جاء أمر اعتقالهم في وحداتهم العسكرية، وظلوا في معتقل «رفح» الحدودي أكثر من عام دون جناية ارتكبوها سوى الدفاع عن فلسطين، والطريف أنه أثناء اعتقالهم حدث تجمع لليهود على أطراف غزة فتوقعت قيادة الجيش هجوماً وشيكاً فأرسلت إلى الإخوان المعتقلين تستطلع استعدادهم للقتال. ![1]

عندما بلغ المد الناصري قطاع غزة تعرض الإخوان للتقلص، وأصبح التدين هامشيا في حياة الناس وهُجِرت المساجد في بعض قرى القطاع وأُغلِقت لأنه لا أحد يرتادها[2].

وفي واقعة معبرة يحكي الشيخ عبد الحميد السائح أنه التقى عبد الناصر، وعرف منه أن الاتحاد السوفييتي أخبره أن «إسرائيل» لن تبدأ بالحرب عام ١٩٦٧م، وكذلك أوحت له أمريكا، ولكنه خُدِع منهم، يقول السائح: «قال لي فيما بعد: والله إنهم جميعاً يكرهوننا لأننا مسلمون وهي حرب صليبية - يقصد حرب ١٩٦٧م - في ثوب جديد لكن لا نستطيع أن نعلن جميع الحقائق لئلا نخسر صداقة بعض من يساعدوننا»[3]، إن كان عبد الناصر غير معتقد بما يقول فتلك مصيبة، وأما إن كان معتقداً فالمصيبة أعظم.

ثانياً: ديبلوماسية التنازلات:

«الحياة فرصة فاغتنمها» هذه نصيحة جميلة على المستوى الشخصي ولكن في

(١) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨.
(٢) الظاهرة الإسلامية، ص ٧٢.
(٣) فلسطين.. لا صلاة تحت الحراب، مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح، ص٧٨.

عالم السياسة هناك قول آخر، لكن لأن السياسي يتداخل مع الشخصي في السياسة العربية تحولت إستراتيجية الفرص إلى سياسة رسمية، لا ينبغي أبداً تفويت أي عرض أو فرصة تأتي من خصم أو حليف، لا مجال لمقارنتها بتوازنات القوى الحالية أو المحتملة في المستقبل، إنها فرصة وكفى.

يتأثر العرب كثيراً بمقولة وزير الخارجية الصهيوني في الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي: «العرب لم يُفَوِّتوا أبداً أي فرصة لتفويت الفرص»[١]؛ لذا يزدادون تمسكاً بكل ما يعتقدون أنه فرصة، أو بالأحرى يُقال لهم: إنه فرصة، فالأفهام تختلف. وأبا إيبان هذا يقول في موطن آخر ولكن موجهاً كلامه إلى بن جوريون هذه المرة: «لا داعي لأن نتفاوض مع العرب لسنوات، إذا تفاوضنا الآن فسوف تكون لهم طلبات في حقوق الأرض وحقوق الناس بما فيها حق عودة اللاجئين، وهي طلبات ليس في وسع إسرائيل أن تقبلها»[٢]، ليس هناك من فرصة إذن.

من يعتمد هذه الإستراتيجية «الفرص» تنتابه الهواجس دائماً، وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية عدَّ بعض العرب قرار التقسيم الذي صدر عام ١٩٤٧م من الأمم المتحدة فرصةً لا تعوض، وعندما فاتت - أو هكذا يعتقدون - ندموا وانتظروا الفرصة التالية، وعندما دعا السادات عرفات والدول العربية للتصالح مع اليهود رفضوا، وبعدها بسنوات ندموا على الفرصة التي ضاعت وأكثرهم ندماً كان ياسر عرفات الذي انطلق لا يلوي على شيء علَّه يكفِّر عن خطاياه فكان أن حَمَّل أوزاره للشعب الفلسطيني بأسره.

---

(١) مقال يعقوب أحيمئير، معاريف، ٢٩/ ١١/ ٢٠٠٧م.

(٢) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ٢ / ٢٣.

إن النظر إلى فرصة اليوم بأرقام الغد سيصل حتماً إلى نتائج مغلوطة، ولا بد من أن يُنظر إلى فرصة اليوم بمعطيات اليوم، ويقدم هيكل نموذجاً لذلك من تاريخ القضية الفلسطينية فيقول: «عندما بَدَأت أولى محاولات الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين بفضل سياسات بالميرستون ودزرائيلي وبأموال روتشيلد ومونتفيوري؛ كان عدد اليهود في فلسطين ثمانية آلاف لا يملكون أكثر من خمسة آلاف فدان، وعندما نشر هيرتزل كتابه عن الدولة اليهودية في فلسطين سنة ١٨٩٦م كان عدد اليهود فيها لا يزيد عن ٢٥ ألفاً يملكون ٥٪ من الأراضي المزروعة في فلسطين، وكان العرب ٨٠٠ ألف ولديهم ٩٨٪ من الأراضي.

وعندما صدر وعد بلفور يتعهد بقيام دولة يهودية في فلسطين سنة ١٩١٧م كان عدد اليهود فيها لا يزيد عن ٤٨ ألفاً يملكون ٣,٥٪ من الأراضي المزروعة في فلسطين، وكان العرب ٩٢٠ ألفاً يملكون ٩٦,٥٪ من الأراضي، فهل كان في مقدور فلسطيني في ذلك الوقت أن يقبل أو يتفاوض على أساس أحلام هيرتزل أو استراتيجية الإمبراطورية البريطانية؟

ويوم صدر قرار التقسيم عن الجمعية العامة للأمم المتحدة كان عدد اليهود في فلسطين حوالي ٣٠٠ ألف وملكيتهم من الأراضي لا تزيد عن ٦٪، في مقابل مليون ومائة ألف عربي يملكون ٩٤٪ من أرضها. ويوم أعلن عن قيام الدولة اليهودية في فلسطين كان عدد اليهود فيها لا يزيد مطلقاً عن ٤٠٠ ألف وملكيتهم من الأراضي لا تزيد عن ٧٪، في مقابل مليون ومائة وخمسين ألف عربي يملكون ٩٣٪ من الأراضي، فهل كان بمقدور أي عربي أن يقبل بالتقسيم أو بإعلان قيام دولة إسرائيلية»[١]؟

---

(١) السابق، ص ١٩.

في الصراع العربي - الإسرائيلي نحن أمام طرفين: طرف عربي لديه استعداد للتنازل بلا حدود، وطرف إسرائيلي لديه استعداد للتفاوض بلا نهاية.. هل سيبقى للطرف الأول ما يقدمه للطرف الثاني بعد عقود من التفاوض؟

التنازلات سبيل المكاسب السياسية.. تنازل بلا حدود:

قضايا ما يسمى بالعالم الثالث، عادة ما يدور النقاش أو التفاوض حولها على مستويين، المستوى الأول: هو مستوى الدول الكبرى، والمستوى الثاني: هو مستوى الدول التي يدور حولها التفاوض، وما يتبقى من الأول للثاني قليل، فالعرب إذن لا يبدؤون التفاوض من حيث يريدون، أو من حيث ينبغي لهم أن يبدؤوا، لكنهم يبدؤون من حيث تحتم عليهم أن يفعلوا.

إن النظر إلى الوراء والتعرف إلى أنماط الأحداث الماضية؛ يُكسبنا أداة قوية لمعرفة ماذا يمكن أن يحدث للمستقبل، وكما يقول علماء المستقبليات عن الاستشراف إنه «فن تحويل معرفة الماضي إلى معرفة للمستقبل»[١].

عام ١٩١٩م جلس رئيس الوزراء الفرنسي إلى رئيس الوزراء البريطاني، وكانت بريطانيا منزعجة من تصرفات مسؤولين فرنسيين، فكان على رئيس الوزراء الفرنسي كليمنصو أن يمتصَّ غضب نظيره البريطاني لويد جورج، فدار الحوار التالي:

- كليمنصو: إنني حريص ألا تكون هناك خلافات كبيرة بيننا فما زالت أمامنا ظروف تقتضي لقاءنا المستمر.. دعنا نسوي الأمور بيننا مباشرة وقل لي: ما الذي تقترح أن نبحثه معاً الآن؟

---

(١) الاستشراف، مناهج استكشاف المستقبل، إدوارد كورنيش، ص ٢٠١ - ٢١٦.

- لويد جورج : دعنا نبحث مصير العراق وفلسطين .

- كليمنصو : إذن قل لي بصراحة : ماذا تريد؟

- لويد جورج : أريد الموصل ، أنتم تطالبون بهذا الإقليم ونحن نعدّه تكملة لجنوب العراق الذي اتفقنا على أن يكون من نصيبنا .

- كليمنصو : حسناً لك أن تأخذ الموصل وسوف نتركه لكم ، هل هناك شيء آخر؟

- لويد جورج : نعم أريد القدس أيضاً إنكم تثيرون المتاعب لنا وتطالبون بالحق في فلسطين بوصفها جنوب سورية .

- كليمنصو : لك أن تأخذ القدس أيضاً ، هل هذا يرضيك؟

- لويد جورج : هذا شيء طيب .

- كليمنصو : إن بيشون (وزير خارجية فرنسا) سيثير لي مشاكل بسبب الموصل وأرجو أن تساعدني إزاءه .

- لويد جورج : ماذا أستطيع أن أفعل لك؟

- كليمنصو : أتركوا لنا سورية شمال فلسطين دون أن تثيروا المتاعب في وجهنا ، أنا لا أعني المنطقة المسيحية في لبنان فقط ولكن أريد سورية الداخل أيضاً ، دمشق وحلب وحمص وحماة .

- لويد جورج : ليس لنا مصالح حيوية في هذه المناطق ولن نعارضكم عندما

تضعونها جميعاً تحت حكم فرنسي موحد[1].

كان هذا المستوى الأول، أما المستوى الثاني فتمخض عن ثورات واسترضاءات و«تطييب خواطر» لبعض العرب هنا أو هناك، وتمت تسوية الأمور على ما هو معروف.

في السبعينيات كان الرئيس المصري أنور السادات قد اقتنع تماماً أن المستوى الأول - الولايات المتحدة - يملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة، فأراد أن يلعبها بذكاء، وكان شريك اللعبة هو هنري كيسنجر الذي قَدِمَ لزيارة السادات أثناء مفاوضات فك الارتباط بعد حرب أكتوبر، ليجد مفاجأة كبرى بانتظاره.

قدم الرئيس المصري تنازلات لم يكن يتوقعها كيسنجر الذي جاء وهو مستعد للتفاوض والمساومات ليجد النتيجة محسومة لصالحه، وكانت أبرز التنازلات:

(الموافقة على تسليم الأسرى الإسرائيليين وأهمهم مجموعة من ٣٦ طياراً إسرائيلياً. الموافقة على رفع الحصار البحري الذي فرضته مصر على باب المندب لإثبات واقع أن البحر الأحمر من خليج العقبة على خليج عدن بحيرة عربية - الموافقة على إظهار استعداد مصر لقبول حل منفرد مع إسرائيل إذا لم تنجح في إقناع حلفائها العرب بضرورة الحل. الموافقة على التنسيق الكامل مع الولايات المتحدة لتحقيق صلح عربي - إسرائيلي شامل. الموافقة على إخراج السلاح السوفييتي من معادلة القوة في المنطقة. البدء بتعمير مدن القناة وإعادة المهجرين منها حتى تطمئن إسرائيل إلى أن مصر لا تنوي استئناف القتال.

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ١ / ١٢٧ - ١٢٨.

«كانت تلك كلها تنازلات لم تخطر على بال، وقد تحققت لكيسنجر في أول لقاء بينه وبين أنور السادات، بل تحقق ما هو أكثر منها، فقد طلب الرئيس السادات من كيسنجر أن تقوم الولايات المتحدة بتحمل مسؤولية أمنه في مصر على المستويين الشخصي والعام، فهو بهذه التنازلات التي قدمها على طريق حل تصور أن الولايات المتحدة تملك ٩٩٪ من أوراقه كما قال، ووضع نفسه في مخاطر شديدة وفي أجواء مجهولة تتخطى إمكانياته في حماية نفسه»[1].

إذا كان الصمود والتنازل كلاهما يعقبه مخاطر؛ فلماذا اختيار التنازل تحديداً؟ تلك معضلة عربية.

وتكمن بعض الأسباب في قاعدة أمريكية غير معلنة: إذا لم تتنازل فسوف نأتي بآخرين غيرك ليتنازلوا، وهذه تحديداً أقصر عبارات يمكن أن تُلخص بها قصة عرفات مع الولايات المتحدة، وهي القصة نفسها التي تنتظر كل من يسلك المسار نفسه من القادة الفلسطينيين، وهو الطريق نفسه الذي يُراد دفع حماس إليه دفعاً وضغطاً وتهديداً لتجد نفسها في النهاية أمام خيارين: إما أن توقع التنازل الأخير، أو يتم تغييرها بآخرين.. وهناك الآن طرائق متعددة؛ إما على طريقة عرفات، أو على طريقة صدام حسين، وهناك طريقة قيد الاختبار مع الرئيس السوداني والمحكمة.

وأدرك عرفات اللعبة متأخراً، كان قبلها مأسوراً تماماً كما السادات بقيمة أن تعترف أمريكا به وتتعامل معه بوصفه رئيس دولة قبل أن توجد الدولة، ووصلت به الحال إلى أنه تلقى من وزير الخارجية الأمريكية نصاً مكتوباً بالشروط الثلاثة التي لا بد من أن يقر بها عرفات علناً أمام العالم أجمع حتى تعترف به أمريكا، وهي: نبذ

(١) السابق، ٢ / ١٩٢ - ١٩٣.

العنف، والاعتراف بحق إسرائيل بالعيش وراء حدود آمنة ومعترف بها، وبقرارات الشرعية الدولية، وأذعن عرفات وقرر تضمينها في خطاب ألقاه في مقر الأمم المتحدة بجنيف عام ١٩٨٨م، وبينما كانت دماء الفلسطينيين تسيل في انتفاضة الحجارة كان عرفات يجاهد في فندق الإنتركونتيننتال في جنيف مع الأمريكان اعترافاً بنبذ العنف أي: المقاومة والانتفاضة.

وكتب بسام أبو شريف يصف لحظة «الانتصار الفندقية»: «وبالفعل ظهر جورج شولتز وأعلن اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وبَدْء حوار جاد معها حول سبل ووسائل إيجاد تسوية سياسية، تشكل أساساً لصنع السلام في الشرق الأوسط.. وارتفع الصراخ والضحك في جناح جمال الصوراني وقلت له: لنحتفل إذاً يا صديقي! أبلغنا تونس بأن يبلغوا الخبر للرئيس لحظة وصوله المطار، وأن يباركوا له بهذا الانتصار السياسي»[١].

ظل عرفات أعواماً بعد ذلك يفاوض على الثمن - بعد أن تنازل - في أوسلو، وقد غفل عن نصيحة كيسنجر الذهبية «لا أحد يتنازل ثم يساوم على ما تنازل عنه»، وأخيراً قبضه مشوهاً «دخل الفلسطينيون ممثلين بمنظمة التحرير الفلسطينية عملية السلام في مدريد وأوسلو من موضع ضعف كبير منذ أن تنازلوا عن ورقتهم الأخيرة باعترافهم بشرعية الدولة اليهودية، وأمسكت إسرائيل بكل الأوراق منذ أوسلو، ووُضِعَت السلطة الفلسطينية في موضع مستحيل وهو ضبط الأمن في المناطق الفلسطينية الغاضبة والساخطة بأسلحة زودها بها الإسرائيليون، وهو ما يعني أن كل عمل عنف كان يشدد يد الإسرائيليين ويزيد في عدم رغبتهم في إعطاء الاستقلال

(١) ياسر عرفات، بسام أبو شريف، ص٢٩٩.

والسيادة للفلسطينيين»[(١)].

انتهى الحال بأبي عمار في كامب ديفيد - كما كان يتمنى - فأخيراً واتته الفرصة ليستعيد ما فاته في الكامب الأولى، وبخاصة أنه كان حاضراً في مجلس الشعب المصري عندما أعلن السادات عزمه زيارة القدس عام ١٩٧٧م، لكن جرت الأمور عام ٢٠٠٠م على نحو مختلف، فقد كان الثمن المطلوب كبيراً لا يُتحمل، وعندما رفض عرفات أن ينتحر سياسياً قال له جورج تينت مدير (السي آي إيه) مهدداً: «سوف ترى ما نحن فاعلون بك»، وحسب رواية هاني الحسن عضو اللجنة المركزية في حركة فتح أجابه عرفات «لن تجد فلسطينياً واحداً يقبل بما تحاولون فرضه علي»[(٢)]، ومرة أخرى أخطأ عرفات في التقدير، فهناك كثيرون يتمنون «شرف» التوقيع الأخير.

منذ هذه اللحظة يمكن تلخيص علاقة كثير من الدول العربية بالقضية الفلسطينية في أنهم: يبحثون عن أحد يوقع التوقيع الأخير... وعندما اختير أبو مازن وبدأ تدريبه وتهيئته خرجت حماس لتعلن دخولها المعترك السياسي، ثم لتفوز مُنحية جانباً عرش الزعيم الجديد، وتأجلت من جديد عملية «التوقيع الأخير».

وتركز الهجوم على حماس التي لا تريد المضي في عملية السلام أو الاعتراف بإسرائيل، وكان الكلام صريحاً جداً، ونقل مركز معلومات الاستخبارات الإسرائيلي مقالاً نشرته صحيفة الأهرام القاهرية ١٤/١/٢٠٠٦م - على مشارف الانتخابات - انتقدت فيه برنامج «حماس» واصفة إياه بـ «الأيديولوجية المتطرفة» القائمة على إلغاء الآخر، والتي تكرس الكراهية بين الشعوب وتشكل عائقاً أمام

---

(١) كولن تشابمان، أرض الميعاد لمن؟ ص ٤٦٥ - ٤٦٦.
(٢) هاني الحسن، صحيفة الحقائق، ٢١/٧/٢٠٠٧م.

تحقيق السلام. ويدعو المقال حركة حماس إلى الاعتراف بإسرائيل وعدم استعمال شعار «القضاء على إسرائيل» في دعايتها الانتخابية[١].

ونشر موقع «التواصل» التابع لوزارة الخارجية الصهيونية مقالات لكتّاب عرب امتدحهم الموقع لأنهم يكتبون مواد تهاجم حماس، واتُّهِم قادة الحركة بأنهم لا يفهمون في السياسة ولا يدركون تغير قواعد اللعبة، وأنهم «قيادات محلية فهمهم للتوازنات الإقليمية يكاد يكون منعدماً، يقرؤون العالم من خلال أمنياتهم، ولم يخرجوا بعد من خطاب (يجب)، ومن ثم جاءت المشكلة الرئيسية في هذا الإطار؛ حيث لم تفهم حماس حسابات النظام المصري أو النظام العربي الذي يعاني من عجز تام»[٢].

نفهم أن الذي يعاني من عجز تام يبحث عن طرف حرٍّ ليستخدمه بوصفه رافعة تنتشله من غرقه، لا عن ناج ليغرقه، وبدلاً من أن ترتكز الأمة كلها على المقاومة الفلسطينية لتفاوض باسمها وتنافح عنها؛ ترتكز كل الجهود عليها لتسكتها، وبدلاً من الحديث عن أنفاق اليهود تحت المسجد الأقصى التي لم تكن يوماً موضوعاً لمؤتمر رسمي أو لقاءات رسمية عربية؛ تحولت أنفاق الطعام والغذاء والسلاح في غزة إلى موضوع لا يمل منه في الاجتماعات، ويهرع لمناقشته ثلة من قادة أوروبا في شرم الشيخ، بينما يصر الإعلام العربي على أنهم قدموا ليبحثوا وقف إطلاق النار!

الإسرائيليون لا يملكون رؤية واضحة.. تفاوض بلا نهاية:

أكبر وهم عاشه العرب وعاشته القضية الفلسطينية هو «وهم خيار الدولتين» الذي وعد به جورج بوش ثمانية أعوام محصِّلاً التنازلات من العرب على شرفه،

---

(١) مركز المعلومات للاستخبارات والإرهاب، ١٨/ ١/ ٢٠٠٦م.
(٢) إسلام أون لاين، ١٢/ ١/ ٢٠٠٩م.

وفي النهاية غادر تاركاً العرب معلِّقِين آمالهم على القادم الجديد في البيت الأبيض .

إن التأمل في طبيعة الكيان الصهيوني بوصفه دولة استيطانية لم تكتب دستورها بعد ولم ترسم حدودها بعد ؛ يكشف استحالة أن يقبل الصهاينة بدولة فلسطينية مستقلة كاملة السيادة مجاورة لهم على الضفة وغزة . وأفضل ما عُرِض على الفلسطينيين كان في عهد الرئيس بيل كلينتون ، وقد وصف عرفات هذا العرض بقوله : أنتم تعرضون علينا سجناً لا دولـة»[1] ، إنه «تعويض وهمي إداري أظهرته - من قبل - الحدود الحقيقية لاتفاقيات أوسلو ، وحلت صورة معازل (كانتونات) مخنوقة يعاد رسمها بتزايد استيطاني لا نهاية له وبلا رحمة ؛ محل صورة دولة فلسطينية قابلة للحياة تؤجل إقامتها باستمرار»[2] .

هناك تلاعب في الألفاظ والمصطلحات في الصراع العربي - الإسرائيلي ، فالجميع يتحدث عن سلام ، بينما المعروض غير ذلك «لسنا أمام ترتيبات سلام . . بل نحن أمام مقدمات تسوية . . والتسوية عادة تختلف عن السلام ؛ حيث إن السلام تصنعه نتائج صراع . . بينما التسوية تصنعها أحوال أمر واقع . . ونحن داخلون هذا الأمر الواقع المفروض علينا كعرب»[3] . ويستخدم الصهاينة في مداولاتهم مع العرب مصطلح السلام ، بينما حقيقة الأمر أنهم «لا يتمنون السلام قط ، ولكنهم يطمعون أيضاً في الأراضي التي احتلوها منذ ١٩٦٧م ، كما يبدو جلياً أن الإدارة الأمريكية - لا تقل في ذلك إدارة كلينتون عن إدارة بوش الابن - لا تنوي فعلاً معارضة سياسة

---

(١) هاني الحسن ، صحيفة الحقائق ، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٧م .
(٢) فرانسوا بورجا ، الإسلام السياسي في زمن القاعدة ، ص ٦٢ - ٦٣ .
(٣) برنامج مع هيكل ، الجزيرة ، ٣/ ١/ ٢٠٠٨م .

الضم غير القانوني لمساحات كاملة من الضفة الغربية»[1].

ومنذ تأسيس الكيان تم وضع خطوط عامة للدولة تتعامل بها مع إشكاليات الصراع العربي - الإسرائيلي، وهذه الخطوط تتلخص في النقاط التالية:

١ - سوف تظل تطلب الاعتراف والتفاوض بقصد السلام.

٢ - لكنه إذا تم لها ذلك فسوف تضع شروطاً تجعل السلام مستحيلاً.

٣ - الآن ليست في حاجة إلى خريطة لأنها لم تصل بعد إلى خريطتها المأمولة.

٤ - ومن ثم فإن عليها أن تنتظر وأن تبني قوتها وتؤكدها.

٥ - عليها أن تتابع عملية هدر القوة العربية.

٦ - تقوية نفسها وبناء تحالفات دولية قادرة على تأييدها وحمايتها[2].

وبعد مقتل عرفات جرت الأمور كالتالي:

عملية «تلميع» للشريك الجديد أبو مازن ليكون مؤهلاً لعقد اتفاقيات السلام، وعندما تأهب أبو مازن وتأهل بدأت عملية تكسير عظام للشريك الجديد وإهماله وتحويله إلى موظف عمومي، ليقول الإسرائيليون في النهاية: «لم يكن أبو مازن الذي يمثل فصيلاً فلسطينياً واحداً بصعوبة؛ قادراً، وهو غير قادر على تقديم أي شيء، فلماذا يتم التباحث معه؟ ولماذا المفاوضة والتخلي والالتزام، في حين أنه من الواضح أنه لا يوجد طرف ثانٍ تساوي كلمته شيئاً؟»[3].

---

(١) فرانسوا بورجا، مصدر سابق.

(٢) المفاوضات السرية، ٢ / ٢٣.

(٣) جلعاد شارون، ٩/ ٨/ ٢٠٠٧م، يديعوت أحرونوت.

قبل مؤتمر أنابوليس اجتمع ثلاثة من قادة الجيش والاستخبارات في الكيان: رئيس جهاز الأمن العام «الشاباك» يوفال ديسكين، ورئيس شعبة الاستخبارات العسكرية عاموس يدلين، بالإضافة إلى رئيس الأركان غابي أشكنازي، واتفقوا على أن محمود عباس «ضعيف وليس ناضجاً بعد لتطبيق اتفاق سلام مع إسرائيل، وقدرته على التنفيذ معدومة»، وقدم الثلاثة توصية إلى الحكومة أن تدير المفاوضات على التسوية الدائمة، على ألا يتجاوز المفاوضون مستوى «اتفاق أدراج» يؤجل تطبيقه لسنوات، إلى أن تثبت السلطة الفلسطينية أنها شريك في عملية سلام[1].

رغم ذلك يصر العرب على العيش في عوالم افتراضية غير موجودة في الواقع، ولا يزال بعضهم يتخوف ويبدي قلقه من أن «الهدف هو قتل حل الدولتين، وهذا غرض سياسي تدعو إليه أطراف يمينية عدة في إسرائيل»، ويتم تفسير كل ما يفعله الكيان على أنه تملص من ذلك الخيار «بعض الأطراف الإسرائيلية لديها أهداف عسكرية بحتة، وهي إضعاف حماس، ولكن آخرين يريدون قتل حل الدولتين»[2].

يصف موشي ديان العقلية العربية فيقول: «يميل العرب إلى خداع أنفسهم وخداع غيرهم، وهم يقومون بذلك عن عمد، إنهم يعيشون في عالم الأوهام كالذي يتعاطى الحشيش ليوهم نفسه أنه يعيش في الفردوس»[3]. ويتعجب الكتّاب الإسرائيليون من طريقة التعامل العربية مع مصطلحات السياسة التي تنبني في العرف اليهودي على المراوغة والخداع والتملص من كل اتفاق، ثم ينتظرون من العالم أن يتعامل معهم

---

(١) يديعوت أحرونوت، مركز الإعلام العربي، ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٧م.
(٢) مسؤول عربي رفض ذكر اسمه كما ذكرت الشرق الأوسط ٩/ ١/ ٢٠٠٩م.
(٣) تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، ص ٤٥.

مقراً بأحقيتهم في استخدام هذه الصفات دون مجال للوم أو عتاب .

يحلل أحد كتاب يديعوت أحرونوت هذه الطبيعة اليهودية في سياق تبريري، ولكنه مهم في فهم مع من نتفاوض، يقول: «التجربة تُبين أن الجانب العربي يرى كل اقتراح تقترحه إسرائيل - سواء سُمي مبدأ، أو تفاهمات أو إعلان نوايا، التزاماً وخط بدء.. لا شك في أن كل ما سيقوله أولمرت في أنابوليس، أو ربما قاله لأبي مازن؛ سيجعل الأمر صعباً على إسرائيل عندما يبدأ التفاوض الحقيقي في السلام... كيف ستستطيع الحكومة التي تلي حكومة أولمرت الخلاص من الوعود والالتزامات التي ستعطى في أنابوليس؟»، ويتفتق ذهن الكاتب عن مخرج قانوني لا غبار عليه: «هناك مبدأ أساسي في القانون الدولي هو أن كل حكومة ترث حقوق والتزامات سابقتها، لكن الحديث عن علاقات بين الدول، وإنه ليصعب أن نُعرف السلطة الفلسطينية على أنها دولة»[1].

عندما تؤكد حماس على أن «إسرائيل» لا تسعى إلى سلام، أو أن ما تقدمه بوصفه «دولة» ليس بدولة؛ تتعرض لانتقادات شديدة، «لا معنى للحديث الآن عن دولة فلسطينية، وكل ذلك بفضل حماس، الحديث الآن هو عن معبر مقابل دولة. المعركة اليوم هي معركة معبر رفح»[2].

لا يريد العرب أن يصدقوا أن ما تفعله «إسرائيل» هو مجرد سفسطة سياسية لا معنى لها، وهذا هو ما أكده زعيمهم بن جوريون من قبل: «يرى الجميع أن ثمة صعوبة في مسألة العلاقات بين العرب واليهود ولكن ليسوا كلهم قادرين على أن

---

(١) زلمان شوفال، يديعوت أحرونوت، مركز الأسرى، ٦/ ١١/ ٢٠٠٧م.
(٢) الشرق الأوسط، مقال: الإخوان الأمريكيون، ٣٠/ ١/ ٢٠٠٨م.

يروا أنه ليس من حل لهذه المسألة، ليس من حل، هناك هاوية وما من أحد قادر على ملئها، وحدها السفسطة يمكنها أن تحل النزاع بين المصالح اليهودية والعربية، لا أعرف أي عربي سيوافق على أن تصبح فلسطين ملكاً لليهود، نحن كأمة نريد أن يكون هذا البلد لنا، والعرب كأمة يريدون أن يكون هذا البلد لهم»[١].

إن مقاومة حماس تجهض عملية التسوية لا شك في ذلك، ولكنها لا تجهض إعادة الحقوق إلى الشعب الفلسطيني، إنها تجهض تضييع الحقوق والإتيان بكائن مشوه يسمونه دولة بدلاً عنها وهو كما وصفه أحد الإسرائيليين «دجاجة مكتفة»[٢]. إن المطلوب من العرب المتمسكين بـ «السلام» أن يعيشوا جيداً داخل العقل الإسرائيلي قبل ذلك؛ حتى يكتشفوا أن سلامهم الوحيد هو «سلام الكلام». يكتب المعلق السياسي المخضرم في هآرتس (عكيفا الدار) عن وصفة النجاح السياسي في الكيان: «الكود السري لكاديما يكمن في المعادلة التي وضعها رؤوبين إدلر، وقادت شارون وأولمرت إلى السلطة، ووصلت إلى ليفني، والتي مفادها: اقتل أكثر ما يمكن من العرب، وتحدث أكثر ما يمكن عن السلام»[٣].

ثالثاً: التحالفات البينية والخارجية:

تعاني الدول العربية من تشوش في مفهوم الأمن القومي العربي نتيجة عقود طويلة من الاستعمار والتمزق السياسي التي مرت بها، ولعل أخطر مرحلة في علاقة الدول العربية مع الاستعمار الغربي هي الفترة الأخيرة قبل الاستقلال التي أنتجت

---

(١) أرض الميعاد لمن؟ ص ٤٥٣ - ٤٥٤.
(٢) السابق، ص ٤٦٥.
(٣) هآرتس، موقع عرب ٤٨، ١١/ ١/ ٢٠٠٩م.

أنظمة عربية لم تكن مستقلة ولم تكن مستعمرة، بل كانت بين بين، في هذه الفترة تمت صياغة مفاهيم أساسية للأمن القومي العربي، وتشكلت أثناءها أهم أسس ومؤسسات التعاون العربي - الجامعة العربية - وتفجرت خلالها أيضاً أهم قضية سياسية عربية وهي قضية الصراع العربي - الإسرائيلي. وإذا كان حسنين هيكل يقول: إن الأمن القومي لأي بلد يحدده عاملان هما: الموقع الجغرافي، والتراكم التاريخي الواقع فوق هذه الأرض[1]؛ فإن الموقع الجغرافي كان مرتهناً لحساب المصالح الغربية، كما أن التراكم التاريخي القريب «المتغرب» طغى على التراكم التاريخي البعيد «المتأسلم»، وهو ما أفرز محفزات للخلاف أكثر منها مقدمات للتوافق.

ومن ثنايا هذه الوضعية المتوترة تَكَوَّن مفهوم الأمن القومي العربي فجاء ملتبساً وبقي غيرَ محدد، ولعل أبرز ما يتناوله الأمن القومي لمجموعة مترابطة من الدول - دينياً وتاريخياً ولغوياً - هو: المصالح المشتركة، والعدو المشترك.

أما المصالح المشتركة فقد غلب الطابع الثنائي المناطقي على المفهوم الجمعي، وأنتج ذلك تحالفات ثنائية أو ذات طابع جغرافي مؤقتة أو محدودة تتبدل وتتغير بحسب الأهواء أو المصالح الضيقة أو القوى الخارجية، وأصبحت شبكة المصالح العربية متقاطعة بدلاً من أن تكون متوازية.

وأما العدو المشترك فلعل أبرز مثال على واقعه هو: اتفاقية الدفاع العربي المشترك التي وقعتها الدول العربية دون أن يكون لها أي ظهور - ولو خافِت - في أي أزمة أو صراع أو عدوان تعرضت له دولة عربية من العراق إلى ليبيا، ومن لبنان إلى الصومال والسودان، مروراً بالطبع ذهاباً وإياباً بـ «فلسطين».

(١) انظر: برنامج مع هيكل، الجزيرة نت، ٣/ ١/ ٢٠٠٨م.

وانعكس هذا الوضع بقوة على القضية الفلسطينية، فتحول الصراع العربي – الإسرائيلي إلى: صراع سوري، فلسطيني، لبناني.. إلخ. ورغم أن الشرخ الأول في قضية «العدو المشترك» حدث عام ١٩٧٧م مع توقيع معاهدة كامب ديفيد؛ إلا أن البداية الحقيقية كانت عندما «وافق عبد الناصر على مبادرة روجرز خلافاً لمؤتمر قمة العرب في الخرطوم ولاءاته الثلاث: لا صلح، لا اعتراف، لا تفاوض.. فجعلها عبد الناصر: تفاوض، اعتراف، صلح، هذه المرحلة ما زالت مستمرة منذ ١٩٧٠م»[1].

ويدفع ذلك إلى طرح التساؤل المؤلم: من هي الدولة العربية التي تعدُّ «إسرائيل» عدوها الأول.. المشترك؟ من هي الدولة التي تعدُّ الكيان الصهيوني يهدد مصالحها وأمنها القومي بصورة مباشرة؟

عندما لا يكون هناك عدو مشترك؛ فإن الحديث عن دعم للقضية الفلسطينية أو حل الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، يصبح نشاطاً ثانوياً لدى غالبية الدول العربية، وهو فقط يبدو في المحافل الدبلوماسية ذا أولوية خاصة مراعاة للرأي العام العربي دون أن تكون له أولوية حقيقية، ماعدا بالطبع الدول المجاورة والتي يرتبط أمنها القومي بحدودها الجغرافية.

وأدى تقلص «المصالح المشتركة» واختفاء مفهوم «العدو المشترك» إلى تحول الارتباطات والتحالفات بين دول عربية وقوى خارجية لتلعب دوراً مهماً وحاسماً في تحديد طبيعة علاقة هذه الدول بالصراع العربي – الإسرائيلي، وفي هذا الصدد تبرز ثلاث قوى أساسية لها تأثير مباشر في مسار ذلك الصراع: إيران، والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي.

---

(١) خليل أحمد خليل، الكوميديا السياسية، ص٣١٩.

نتناول في هذا المحور تأثير التحالفات الغربية:

عند النظر إلى السياسة المصرية بوصفها نموذجاً قياسياً لتأثير التحالفات الغربية على التعامل العربي مع القضية الفلسطينية؛ يمكن تحديد ثلاثة مسلَّمات تشكل الأساس الذي ينبني عليه الموقف المصري من أطراف الصراع[١]:

أولها: الحفاظ على العلاقة الإستراتيجية مع الولايات المتحدة. وثانيها: الالتزام ببنود معاهدة كامب ديفيد دون أي خرق لها. وثالثها: صياغة العلاقات العربية على أساس تبادل المصالح وتغليب صيغ التعاون الثنائي على صيغ التعاون الجماعي[٢].

وسبق تناول مسألة المصالح المشتركة، وتبقى مسألتان، وكلتاهما ذات علاقة فلسفية بمعنى «الوساطة» و«الوسيط» في السياسة الدولية وتطبيقاتها الفريدة في عالمنا العربي.

وباستعادة ما سبق الحديث عنه فنحن أمام وساطة بين المستوى الأول: (أمريكا) والمستوى الثاني: (العرب)، ثم بين المستوى الثاني والمستوى الثالث: (حماس). وهنا نتساءل: ماذا يمكن أن يترك الأول للثالث - عن طريق الثاني - كي يساوم عليه؟

١ - العلاقات الإستراتيجية مع الولايات المتحدة وأوروبا:

كثير من المحافل العربية تنظر إلى الصراع العربي - الإسرائيلي نظرة خاصة،

---

(١) وهو التعبير الذي ورد على لسان كثير من المسؤولين المصريين عند تناولهم للحرب الأخيرة، ويقصدون: حماس، والكيان الصهيوني.

(٢) انظر مقال د. حسن نافعة: مصر وغزة وحماس.. ماذا بعد الحرب؟ الجزيرة نت، مركز الدراسات.

فهي تعدُّه «صداعاً» وليس «صراعاً» انطلاقاً من تقلص دوافع العداء مع الكيان الصهيوني وتضخم علاقات التحالف مع واشنطن. وفرق كبير بين من يتعامل مع قضية سياسية بوصفها «صراعاً» أو بوصفها «صداعاً»؛ إذ في الحالة الثانية سيتم تجاوز كثير من المسلَّمات والحقائق التي يُعد تجاوزها في الحالة الأولى خروجاً عن المنطق والعقل وقواعد إدارة الصراعات الدولية.

الخروج الأبرز عن المنطق في هذا المجال هو قدرة السياسة العربية على تجاوز جميع الحقائق والمعطيات حول العلاقة الدينية التاريخية الإستراتيجية بين الكيان الصهيوني والعالم الغربي، والنظر إلى أهم حليف لـ «إسرائيل» على أنه الطرف الذي يملك «٩٩٪» من أوراق اللعبة، وهو بذلك - في نظرهم - المرشح الأول - والأوحد - للعب دور الوسيط «النزيه»، وهي المرة الأولى في تاريخ الصراعات الذي نرى فيه أحد طرفي الصراع يحتكم إلى الطرف الآخر.

إذا قَلَّبنا في سياقات التفاوض بين الصهاينة والفلسطينيين فلن نجد رئيساً أمريكياً تدخل في الصراع كما فعل بيل كلينتون الرئيس الأمريكي من ١٩٩٣م - يناير ٢٠٠١م، حتى إنه استقبل ياسر عرفات ١٣ مرة في البيت الأبيض وهو ما لم يفعله أي رئيس أمريكي مع أي زعيم آخر في العالم، وكان كلينتون يتفاخر بأنه على دراية بجغرافية الضفة الغربية والقدس الشرقية لدرجة قدرته على رسم خريطة لهما وهو نائم[١].

لم يُجْدِ ذلك نفعاً؛ لأنه «لم يكن كافياً لحل مشكلات جوهرية صعبة... لقد كان إطار كلينتون المرجعي مثل صنّاع سياسة الولايات المتحدة لما يقرب من قرن من

---

(١) فلسطين في العقل الأمريكي، ص ٤٠٧.

الزمان؛ منحازاً لإسرائيل، ومع روابط الصداقة السطحية بالزعماء الفلسطينيين، فقد استمر حتى نهاية ولايته في التوسط من منظور تَرَكَّزَ أساساً على اهتمامات إسرائيل بدلاً من أن يكون مرتكزاً على هموم الطرفين بالتساوي»[١].

مع ملاحظة نقطة مهمة، وهي أن كلينتون تدخل في الصراع نهاية فترته الرئاسية الثانية، أي: أنه لم يكن يطمح في المنصب مرة أخرى، وبذلك كان في مأمن من الحقيقة التي تقول: إن التاريخ لم يسجل أي رئيس للولايات المتحدة فاز في الانتخابات طالما يمارس ضغوطاً على إسرائيل إلا أيزنهاور[٢]، فهناك دوماً خط أحمر لا يمكن أن يتجاوزه أي رئيس أمريكي، مهما كانت دوافعه وميوله الشخصية.

ومرَّ بنا كيف تلازمت فكرتا «إسرائيل» و«أمريكا» في الثقافة الأمريكية، حتى صار بعضهم يعتقد «أن الأمريكيين لكونهم كانوا بمعظمهم مستوطنين طردوا السكان الأصليين في قارة بكاملها وسيطروا عليها؛ فمن الطبيعي أن يتماهوا مع اليهود الذين فعلوا الأمر نفسه في فلسطين»[٣]. وعندما حط القادمون الجدد من إنجلترا على الشاطئ الأمريكي الشرقي لأول مرة أطلقوا عليه «إسرائيل الله الجديدة»، وانتشرت أسماء مثل: صهيون، أرض كنعان، أرض الميعاد.. لتسمية مناطق الأرض المكتشفة أو المغتصبة، وقدسوا اللغة العبرية وطالبوا بتطبيق شريعة موسى «عليه السلام»[٤].

---

(١) السابق.

(٢) فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، ص ٢٢٧. وكان أيزنهاور رئيساً قوياً ومحبوباً اتخذ قراراً عقابياً بوقف المساعدات عن الكيان - مؤقتاً بالطبع - لأنها خدعته في قضية تحويل مياه نهر الأردن عام ١٩٥٣م، انظر: أمريكا بعيون عربية، د. عبد الحي زلوم، ص ١٨٨.

(٣) أرض الميعاد لمن؟ ص٤٦٧.

(٤) تلمود العم سام، ص٢٤، ٣٠.

تراكمت هذه الثقافة داخل المجتمع الأمريكي الناشئ حتى قيل: إن «تاريخ الدين المدني في أمريكا هو تاريخ القناعة الراسخة بأن الأمريكيين هم الإسرائيليون فعلاً وشعب الله حقاً»[١]، وأن «هاجس أمريكا بتأسيس دولة يهودية في فلسطين أعرق من الحركة الصهيونية اليهودية وأشد تطرفاً، وأنه إذا كانت الصهيونية اليهودية تستهدف أرض إسرائيل؛ فإن الصهيونية غير اليهودية تستهدف أرض إسرائيل وإسماعيل وإبراهيم عليهم السلام»[٢].

يقول المؤرخ البريطاني بول جونسون: إن النخبة الأنجلوساكسونية الحاكمة في أمريكا، ومن يدور حولها فكراً وثقافة؛ لديهم قناعة متوارثة بأن أمريكا «هي الجسر إلى مملكة الله، وأنهم هم يد الله التي ستبني أورشليم الجديدة على أنقاض القدس»، وهذه النخبة ظلت تعتقد أن الاختيار الإلهي لها هو إرادة الله التي عبر عنها «أنبياء» إسرائيل الجديدة في بداية القرن السابع عشر، ثم أكد عليها كل رؤساء الولايات المتحدة بلا استثناء، «بدءاً من جورج واشنطن في خطبة الوداع عام ١٧٩٦م وإلى بيل كلينتون في خطابه المسكوني فبراير ١٩٩٨م أمام ألفين من رجال السياسة والفكر وأعضاء الكونجرس، حيث شبه نفسه بالملك سليمان، وشبه الأمريكيين بشعب الله المختار، وشكر للأمريكيين إرشاداتهم ونصائحهم التوراتية للتعامل مع العراق ورسائلهم المشجعة على قصفه»[٣].

هناك الآن ٤٠ مليون نصراني أصولي في أمريكا يدعم تفسيرهم لكتابهم المقدس

---

(١) السابق، ص١٩.
(٢) السابق، ص٢٩.
(٣) السابق، ص٣١ - ٣٢.

الرؤية الصهيونية بشكل عام، وسياسة إسرائيل بشكل خاص، وهو ما دفع نتنياهو إلى القول: «إن الإنجيليين الأمريكيين هم أفضل الأصدقاء عند إسرائيل»[1].

وبخلاف الارتباط الديني؛ فإن النفوذ السياسي يضع قيوداً أمام النخبة الحاكمة الأمريكية حتى لو تولدت لدى أحدهم رغبة في الخروج عن السياق. هناك خطوط حمر.

في لقاء جمع بين الرئيس الأمريكي هاري ترومان وبين الوزير المفوض في جدة الكولونيل إيدي؛ كان إيدي يحاول أن يلفت نظر رئيس الولايات المتحدة إلى خطورة سياسته - المؤيدة لإسرائيل - على المصالح الأمريكية في المنطقة العربية، وردَّ ترومان بصراحة قائلاً: «هل لدى العرب أصوات في مينوسوتا يعطونها لي في انتخابات الرئاسة أو يحجبونها عني؟» وردَّ إيدي بالنفي، وحسم ترومان احتجاجات ممثله في جدة بقوله: «إن اليهود لديهم أصوات في مينوسوتا»[2]. وهناك قصة ينقلها الكاتب الأمريكي المعروف جور فيدال عن ترومان أيضاً الذي ساءت حالته النفسية بعد أن دخلت حملته الانتخابية الأولى في نفق مسدود، إلى أن «جاء يوم دخل عليه فيه أحد الناشطين في الحركة الصهيونية في محطة توقف عندها قطار حملته الانتخابية، ثم قدم إليه حقيبة يد فيها مليونا دولار نقداً وهو يرجوه اعتبارها مساهمة في حملته الانتخابية». وينقل فيدال عن الرئيس جون كيندي مباشرة تعليقاً على هذه القصة: «وهكذا اعترفنا بدولة إسرائيل قبل إعلان قيامها»[3].

في إبريل ٢٠٠٢م عندما كان آرئيل شارون محاصِراً لجنين ومتحضراً لذبحها؛

---

(١) أرض الميعاد لمن؟ ص٤٧٢، ٤٩٥.

(٢) المفاوضات السرية، الجزء الأول، ص٢٢٢/ ٢٢٣.

(٣) السابق.

نظم أكثر من ١٠٠ ألف شخص هم في معظمهم يهود وأصوليون نصارى مسيرة في نيويورك دعماً لنظام شارون، وخطب فيهم بول وولفويتز وويليام بينيت وهيلاري كلينتون ورودي جولياني[١].

والمفارقة المؤسفة أن العرب استوعبوا هذه الحقائق بطريقة عكسية، فكان يمكن على سبيل المثال أن يحاولوا تكوين جماعات ضغط داخل المجتمع الأمريكي المتناقض في ثقافاته. يذكر البروفيسور تشابمان: «إن داخل الولايات المتحدة رأي واسع النطاق مستعد لانتقاد السياسة الخارجية لكل من إسرائيل والولايات المتحدة، المأساة أن العرب ضعفاء وأكثر تقسيماً وأقل تنظيماً ومعرفة من أن يستفيدوا منه»[٢].

بدلاً من ذلك، وبدلاً من التراجع عن اعتماد أمريكا وسيطاً نزيهاً؛ نظروا إلى إسرائيل بوصفها «فاتحة الأبواب المغلقة» في واشنطن، فشهدت العلاقات المصرية الإسرائيلية - على سبيل المثال - تطورات ملحوظة في السنوات الأخيرة كان أغلبها يحمل طابع «التنازلات» مثل: الإفراج عن عزام عزام، وتوقيع اتفاقية الكويز، وإبرام صفقة الغاز.

وتحولت السياسة العربية في غالب توجهاتها إلى موضع المتلقي، وبخاصة في القضية الفلسطينية، وينتقد محمد البرادعي مدير وكالة الطاقة الذرية ترقب العرب الدائم السلبي لكل قادم جديد في البيت الأبيض «كل ما نسمعه ونراه هو عن كيف ستعاملنا هذه الإدارة الجديدة، وليس عن كيف سنؤثر في معاملتها لنا». ويتعجب البرادعي من تشكيل لجنة رباعية لمعالجة القضية الفلسطينية دون أن يكون للعرب تمثيل

---

(١) سطوة إسرائيل في الولايات المتحدة، ص٨١.
(٢) أرض الميعاد لمن؟ ص٤٦٨.

فيها «المشكلة الفلسطينية التي نعيشها منذ العام ١٩٤٨م ونقول: إنها لب مشاكلنا؛ نتركها للعالم الخارجي ليتعامل معها، ويجلس الاتحاد الأوروبي في اجتماعات الرباعية، بينما الجامعة العربية لا يمكنها ذلك»[١].

لكن الجامعة العربية لها مسارات أخرى، عبر عنها مؤخراً د. عمرو موسى أمينها العام الذي قبل أن يجلس في حوار مباشر مع شيمون بيريز رئيس الكيان الصهيوني في منتدى دافوس بينما يُفترض - جدلاً - أن الجامعة لا تعترف بالكيان ولا تزال تعدُّه «عدواً مشتركاً»، وقد برر الأمين العام ذلك بأنه لا يجب ترك هذه المحافل المهمة دون أن نعبر عن وجهة نظرنا[٢]، هذه إذن وظيفة الأمين العام؛ الذي يُعامل وَفْق قواعد البروتوكول كما يعامل رؤساء الدول: التجول على المحافل وإلقاء الكلمات حول وجهات النظر، وكأنه ينتظر مثلاً بعد فترة أن يقول له الغربيون: كم نحن آسفون .. اكتشفنا أننا «كنا فاهمين غلط».

وماذا عن أوروبا؟

في السياق نفسه يأتي الموقف من دول الاتحاد الأوروبي، حيث يُنظر إليها - عربياً - بوصفها أكثر اعتدالاً من واشنطن، وكان لافتاً في اجتماع مجلس الأمن[٣] الذي أصدر قراراً يلزم «أطراف الصراع» في غزة بوقف إطلاق النار؛ أن وزير الخارجية المصري خاطب نظيره الفرنسي بعبارات ودودة «الصديق العزيز كوشنير» و «أود أن أعبر عن عميق الشكر لكم ولبلدكم الصديقة على الجهد الذي بذلتموه». وكان لوزير الخارجية البريطاني نصيب «الشكر مستحق بشكل خاص للسيد وزير الخارجية

(١) حوار مع صحيفة الحياة، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٨م.
(٢) انظر: لقاءه مع الجزيرة.
(٣) الجزيرة، ٩/ ١/ ٢٠٠٩م.

البريطانية وحكومته ووفده الذين عملوا بشكل مخلص ودؤوب معنا منذ البداية».

هذا التكييف للعلاقات والمصالح الدولية وكأنها «علاقات شخصية» يعطي دلالات خاطئة؛ ففرنسا «الصديقة» هي التي بنت المفاعل النووي لإسرائيل الذي بدأ عام ١٩٥٧م واكتمل عام ١٩٦٦م، وظلت حتى هزيمة ٦٧م هي مزودها الرئيس لأحدث الأسلحة والتكنولوجيا العسكرية، كما أن الرئيس الفرنسي ساركوزي يحظى حالياً بشعبية عالية في الأوساط اليهودية الفرنسية وهو ما جعلهم يتمهلون في الهجرة إلى فلسطين لأنهم يشعرون مع ساركوزي بأمان أكبر[١]. أما «العزيز» كوشنير فقد اتهمته صحف فرنسية بأنه يتوافق في أفكاره مع توجهات المحافظين الجدد في أمريكا أكبر مؤيد للسياسات الإسرائيلية[٢]، أضف إلى ذلك أن كلاً من وزير الخارجية السعودي ود. عمرو موسى هدَّدا كوشنير قبل انعقاد جلسة مجلس الأمن المذكورة بإقامة مؤتمر صحفي يكشفان فيه تعمد فرنسا تأخير صدور القرار لتغطية الحرب الإسرائيلية على غزة.

أما بريطانيا «المخلصة» فهي السبب الأول في المأساة الفلسطينية، وما من دولة استهانت وتلاعبت بالعرب في مرحلة ما قبل تأسيس الكيان كما فعلت، يسوقها في ذلك المصالح المشتركة مع اليهود، وقد كانت عائلة روتشيلد تجسد المثال الأكبر على ذلك؛ فهي التي موَّلت مؤامرة الاحتلال البريطاني لمصر، ثم موَّلت أول دفعات من اليهود المهاجرين إلى فلسطين، وأنشأت خط أنابيب لنقل البترول من العراق إلى حيفا، وصدر وعد بلفور في الأساس موجهاً بصورة مباشرة إلى اللورد روتشيلد دون غيره،

---

(١) الإذاعة الإسرائيلية، مركز الأسرى، ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٧م.
(٢) الجزيرة، صحافة المنتصف.

ولما أبدى الأمير فيصل بن الشريف حسين تردداً في الاستجابة لطلبات حاييم وايزمان - خليفة هيرتزل - فيما يتعلق بوضع فلسطين؛ وأرسل إليه السياسي البريطاني مارك سايكس - أحد موقعي اتفاقية سايكس بيكو - يخوفه من اليهود قائلاً: «صدقني عندما أقول لك: إن هذا العرق المكروه المخيف الضعيف عالمي وقوي بدرجة لا يمكن القضاء عليه». وقد نقل الكاتب البريطاني توم سيجيف في كتابه «فلسطين واحدة كاملة» كلاماً قاله تشرشل في نوبة سكر من أنه «سيدعم الصهاينة حتى وإن مارسوا أفعالاً غبية بدرجة رهيبة»[1].

إن بريطانيا تحمل وزر الدموية التي تتعامل بها قوات الاحتلال مع الشعب الفلسطيني المقاوم ومع مقاتلي المقاومة، فقد تعلم اليهود ذلك على يد البريطانيين إبان الثورة الفلسطينية في الثلاثينيات من القرن الميلادي الماضي، عندما تكونت مجموعات قتالية لمساعدة اليهود، من بينها: وحدة بقيادة شارلز وينجيت ضابط الاستخبارات البريطاني والتي كانت تتسلى بالرجال الفلسطينيين وتجعلهم يمرغون وجوههم في التراب والنفط قبل قتلهم أمام عوائلهم. وقد أصدرت وزارة الحرب الصهيونية لاحقاً خطاب تأبين لذكرى وينجيت وخدماته جاء فيه: «كانت تعاليم وينجيت بمثابة حجر زاوية في نظر قادة الهاجانا، وترك تأثيراً واضح المعالم على العقيدة القتالية لقوات الدفاع الإسرائيلية»[2].

وتحولت حماس إلى حركة إرهابية:

قضت هذه التحالفات الغربية - العربية على ما تبقى من الأمن القومي العربي

---

(١) راجع كتاب: أمريكا بعيون عربية، د. عبد الحي زلوم، ص١٧٥ إلى ١٨١.
(٢) السابق، ص١٨٥.

وفرضت أجندات أخرى وأولويات مختلفة، ولأن القضية الفلسطينية اختُزِلت في طرفين فقط: (فتح والسلطة التي تمثلها، وحماس والمقاومة التي تقودها)؛ لم يعد هناك مجال آخر للاختيار، وكانت قمة شرم الشيخ العالمية في مارس ١٩٩٦م قد حددت البوصلة مبكراً: المقاومة في الأراضي المحتلة من أعمال الإرهاب، بعدها انطلقت الإدارة الأمريكية في ممارسة الضغوط على أي دولة عربية تقدم دعماً لحماس، أو بعبارة أخرى «الإرهاب»، وظلت الكلمات الثلاث التي قبلها عبد الناصر «أسطورة القومية العربية» مسلطة على رقاب قادة حماس أينما توجهوا في الأرجاء العربية: اعتراف، تفاوض، صلح.

تعرض اليمن لضغوط أمريكية لقطع علاقاته مع حماس، وقُدمت له إغراءات عن طريق جورج تينت مدير (السي آي إيه)، وطالب الرئيس بيل كلينتون مباشرة كلاً من اليمن وإيران بإغلاق مكاتب حماس، وعدم السماح لها بممارسة أي نشاط سياسي أو إعلامي، وتعرض الأردن لضغوط مماثلة، وبعد إبعاد قادة الحركة أكدت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة مادلين أولبرايت بشدة على معارضة إدارتها لإعادة فتح المكاتب أو الإفراج عن قادة الحركة المعتقلين دون تحديد شروط تنظم العلاقة المستقبلية بين حماس وكل من الأردن والسلطة الفلسطينية، وذكرت أولبرايت أن واشنطن مارست ضغوطاً على دول عربية حتى لا تتدخل للوساطة بين الأردن وحماس[١].

وعلى صعيد الوساطة المصرية لم يعد الدور المصري مقنعاً فيما يتعلق بالحيادية أو كما يقول مسؤولون مصريون: إنهم حريصون بالأساس على المصالح الفلسطينية،

---

(١) إسلام أون لاين، ٦/ ١٠/ ١٩٩٩م.

وحسب د. نافعة فإنه «من الصعب على نظام سياسي يمنح الأولوية لارتباطاته مع الولايات المتحدة وإسرائيل؛ أن يلعب دور الوسيط النزيه في صراع بهذا التعقيد، خاصة أنه يتعامل في الوقت نفسه مع حماس، وهي القوة الصاعدة على الساحة الفلسطينية، كخصم وكعدو محتمل»[١].

لا يجد المتابع لوسائل الإعلام الرسمية في مصر عناءً في تحديد نتيجة المقارنة بين انتقاد الكيان، وانتقاد حماس، وبدا الأمر كأن حماس هي الجهة المعتدية، وتم تضخيم أخطاء مفتعلة للحركة لإحداث توازن غير موجود أصلاً يكون بمنزلة غطاءٍ لجعل الوساطة المصرية كأنها بين طرفين في مستوى الندية، والأعجب أن حماس اتُّهِمت بأنها تعمل ضد القضية الفلسطينية بينما تعمل مصر من أجلها: «لم يكن غريباً أن تواجه مصر بنكران الجميل ومحاولة إعاقتها عن تأدية مهامها في الحفاظ على ما تبقى من زخم للقضية الفلسطينية، التي تتعرض اليوم إلى تصفية حقيقية، وبيد خفية من الفلسطينيين الذين باعوا أنفسهم للشيطان وأصبح دم شعبهم رخيصاً وبخساً»[٢].

وما يبعث على الإحباط هو تعلق مصير أي انفراجة عربية مع حماس بضوء أخضر غربي، وعندما لا يكون الأمر كذلك يكون الإخفاق هو المصير المنتظر؛ سواء جاء «التعويق» عن طريق ضغوط غربية مباشرة على الأطراف العربية المعنية بالانفراجة، أو بواسطة الطرف الفلسطيني الممثل في سلطة أبي مازن، الذي يُخول له في كثير من الأحيان مهمة تعويق الانفراجات التي لا تنسجم مع المصالح الغربية أو الإسرائيلية.

---

(١) د. حسن نافعة، مصدر سابق.

(٢) ممتاز القط رئيس تحرير أخبار اليوم، ٣/ ١/ ٢٠٠٩م.

نعم! أدت حرب غزة ٢٠٠٩م إلى حدوث تغير ملحوظ في مواقف دول غربية، لكن هذا التغير لا يزال محصوراً في فكرة: أهمية فتح قنوات اتصال مع حماس والقبول بالأمر الواقع في غزة، ويبقى المسار الغربي بعد ذلك مرتهناً بموقف حماس من الكيان الصهيوني والاتفاقيات التي وقعت عليها منظمة التحرير.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الاتجاه العام العالمي يميل نحو تهدئة الملفات الساخنة دون أن يعني ذلك بالضرورة حلها، وأيضاً فإن «ملف حماس» كما هو مرتبط بالقضية الفلسطينية أساساً؛ فقد بات في المنظور الغربي للشرق الأوسط على علاقة جدية بالملفين: السوري والإيراني، وهذا يفتح الباب على مصراعيه لاحتمالات لا حصر لها حول ما يمكن أن يحدث في المرحلة القادمة.

٢ - اتفاقيات السلام:

عام ١٩٩١م أُعلِن عن جلسة تصويت في الأمم المتحدة لإلغاء قرارها السابق بمساواة الصهيونية بالعنصرية، وكانت كوبا هي الدولة الوحيدة من الأمريكيتين التي صوتت ضد القرار، وكان غريباً أن دولاً عربية تغيبت عن الجلسة[١]، كان ذلك عام مؤتمر السلام في مدريد، حيث بدأ العد التنازلي لإسقاط الكيان الصهيوني من منزلته بوصفه عدواً إستراتيجياً للعرب.

وفي ذلك العام أيضاً انتهت حرب الخليج الثانية التي دشنها صدام حسين بغزو - لا معقول - للكويت محطماً ما تبقى من تماسك عربي، ومفتتحاً لحقبة جديدة من التدهور العربي لا شك أنه يحمل وزرها السياسي.

---

(١) فلسطين.. لا صلاة تحت المحراب، ص٥٦.

وعن ذلك الحدث كتب نتنياهو منتقداً العرب وملمحاً بطريقة ذكية إلى تكسير قاعدة (العدو الإسرائيلي المشترك) وذلك عن طريق انتقاد محورية القضية الفلسطينية في العالم العربي «أول ضحايا حرب الخليج التي اندلعت عام ١٩٩١م لم تكن من البشر إنما كانت أبقاراً، أبقاراً مقدسة، فطيلة سنوات عديدة ربَّى أعداء إسرائيل قطيعاً من هذه الأبقار، مسلَّمات سياسية لا تجوز مناقشتها وبنوا على أساسها نظرية مشوهة ومضللة حول طبيعة الشرق الأوسط وموقع إسرائيل فيه. . كان أحد هذه المسلَّمات التي تضررت فوراً مع الغزو العراقي هو وجهة النظر القائلة: إن كافة المتقلبات التي يشهدها الشرق الأوسط تنبع بطريقة أو بأخرى مما سمي بـ(القضية الفلسطينية)»[١].

وبعد عودة العلاقات العربية - المصرية إلى طبيعتها مع نهاية الثمانينيات؛ بدأت عملية مراجعة داخلية لاحتمالات السلام العربي - الإسرائيلي، وبعد توقيع اتفاقية وادي عربة بين الأردن وإسرائيل عام ١٩٩٥م زاد ثقل المنادين بالسلام، وتحولت الاتفاقيتان إلى معبر لاختراق العقل السياسي العربي، وفي لقاء جمع زعماء مصر والأردن مع عرفات وإسحاق رابين في القاهرة؛ تحدث شيمون بيريز لـ (السي إن إن) مفتتحاً صيغة جديدة للاختراق: القضاء على الكراهية في مناهج التعليم.

قال بيريز: «إن إسرائيل في طريقها إلى صناعة برمجيات تعليمية باللغة العربية حتى يمكن توحيد نظام التعليم في المنطقة»، وفي المؤتمر الاقتصادي بالمغرب عام ١٩٩٦م طالب شيمون بيريز الدول العربية أن يجربوا قيادة إسرائيل الأعوام الأربعين المقبلة، ثم في عام ٢٠٠٠م في دافوس دعا إلى إشراك الكيان في جهود تطوير الاقتصاد والتعليم في الشرق الأوسط؛ لأن «إسرائيل لا تريد أن تكون دولة ثرية

---

(١) مكان بين الأمم، ص١٠٧.

في وسط محيط من الفقر في الدول المجاورة ولا دولة نظيفة في محيط عربي غير نظيف»، وأعرب عن رغبة «إسرائيل» في انضمامها إلى الجامعة العربية لتصبح جامعة بلدان الشرق الأوسط وكان ذلك كله وسط أجواء تتبنى ما عرف باسم ثقافة السلام، وكان مضمون كلام بيريز قد انتقل للتنفيذ بالفعل في عدة دول عربية من خلال برنامج تطوير المناهج التعليمية الذي تقدمه الإدارة الأمريكية وتشرف عليه[١].

وكانت القاعدة التي ارتكز عليها الإسرائيليون في تواصلهم مع العالم العربي هي: مصر والأردن بسبب اتفاقيات السلام، وقد لقيت الزيارة التي قام بها وزيرا الخارجية المصري والأردني إلى الكيان عام ٢٠٠٧م بتكليف من الجامعة العربية ترحيباً كبيراً، وجرى الحديث عن تماثل في المصالح بين إسرائيل والدول العربية[٢]، وكتبت تسيبي ليفني وزيرة الخارجية الصهيونية في الوقت نفسه مقالاً في جيروزاليم بوست، أكدت فيه من جديد على فكرة (وحدة المصير): «شعوب الشرق الأوسط تتقاسم المصير ذاته؛ لذلك قدر لنا أن نكون جيراناً، ومستقبلنا مرتبط بعضه ببعض»[٣].

ومع تزايد مخاطر المشروع الإيراني التوسعي في الشرق العربي التقط الكيان الخيط وحاول الاختراق مجدداً، وكتب وزير الخارجية الأسبق شلومو بن عامي: «السبيل الأفضل للقضاء على استراتيجية إيران هو من خلال سلام إسرائيلي - عربي شامل، يأتي في أعقابه تمويل دولي لبناء نظام سلام وأمن في الشرق الأوسط نقي من النووي، كابوس إيران النووية يطارد العرب والإسرائيليين على حد سواء، ولكن القوة المحركة

---

(١) تربية العنصرية في مناهج التعليم الإسرائيلية، ص٢٦ - ٢٧.
(٢) ديفيد جوبرين، هآرتس، ١/٨/٢٠٠٧م.
(٣) مركز الأسرى، ٢١/٦/٢٠٠٧م

في محاولة صدِّ التطلعات الإيرانية هي الولايات المتحدة وإسرائيل»[1].

وفي إبريل ٢٠٠٧م نشرت هآرتس ما قالت إنه مضمون لقاء تم بين وفد برلماني من الكنيست الإسرائيلي وزعيم عربي، وكانت التصريحات خطيرة، قالت هآرتس: إن الزعيم العربي قال: «إن قضية اللاجئين الفلسطينيين ليست مشكلة إسرائيل وحدها، بل مشكلة الدول العربية أيضاً»، وقال: إن لإسرائيل حق الفيتو على أي بند لا يعجبها في المبادرة العربية، وعندما تساءل الوفد عن تصريحات عمرو موسى «إن على إسرائيل أن تأخذ المبادرة العربية كلها أو تتركها كلها»، قال الزعيم - حسب الصحيفة - : «اتركوه لي، إننا نواجه المصيبة ذاتها والمشكلة ذاتها والأعداء أنفسهم»، وكان من ضمن الأعداء: حركة حماس!

٣ -كل الطرق تؤدي إلى حماس:

تحولت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية إلى مزود رئيس بالمعلومات التي تحفز الدول العربية ضد حماس، وعندما توترت العلاقات بين الأردن والحركة عام ١٩٩٩م؛ بذل مسؤولو الموساد جهداً كبيراً في هذا المجال؛ فزار الأردن كل من داني ياتوم رئيس الموساد السابق[2]، وأفرايم هاليفي الرئيس وقتها، وكلهم يحملون ملفات ومعلومات عن تحركات سرية وخطط للسيطرة على البرلمان والتخابر مع دول أجنبية، وترددت أنباء عن زيارة قام بها شارون نفسه للسبب نفسه: التحريض ضد حماس[3]!

(١) يديعوت أحرونوت، مركز الأسرى، ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٧م.
(٢) إسلام أون لاين، ٦/ ١٠/ ١٩٩٩م.
(٣) إسلام أون لاين، مقال: مها عبد الهادي: حماس بين خياري الاحتواء أو الإنهاء.

وأثناء حرب غزة ٢٠٠٩م بدأ قادة الكيان يسربون تصريحات للإعلام توحي بأن قادة عرب لا يتوقفون عن الاتصال بهم طالبين شيئاً واحداً: اقضوا على حماس. وكتب شمعون شيفر في يديعوت أحرونوت متحدثاً عن دول عربية «تنقل إلى القيادة الإسرائيلية رسائل حادة لا تقل عن تصريحات السياسيين الإسرائيليين: اضربوا حماس ولا تسمحوا لهنية بالتحول إلى نصر الله الثاني.. يجب أن تخرج حماس مضروبة ومرضوضة بحيث لا ترفع الرأس لفترة طويلة»[١]. وفي اجتماع لمجلس الوزراء المصغر قدم رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الجنرال عاموس يادلين مجموعة من التقارير الواردة من عواصم دول عربية ومن واشنطن وعواصم أوروبية وتحديداً ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا تحث على الحسم في مواجهة حماس[٢]، كما نشرت صحيفة معاريف «الإسرائيلية» تقريراً يقول: إن دولاً عربية طالبت إسرائيل بقطع رؤوس قيادات حركة حماس، ونسبت إلى مسؤول عربي قوله: «إن حماس حركة متعجرفة وإن العمليات العسكرية ضدها سيؤدي بها إلى الواقع»[٣].

وسيلة أخرى لمعاقبة حماس استناداً إلى اتفاقيات السلام: معبر رفح، حيث كان الإعلاميون يتابعون التناقض الصارخ بين تقليص المساعدات الداخلة إلى غزة، وبين الحرية المطلقة لشاحنات تصدير الأغذية المصرية إلى الكيان الصهيوني.

في رفح: ذكر المذيع في قناة الجزيرة أحمد منصور أنه شاهد شاحنات كثيرة تحمل أغذية تبرع بها مصريون للفلسطينيين في غزة تتوقف عند معبر رفح «قابلت كثيراً من البسطاء الذين جاؤوا من كل محافظات مصر وبقوا على المعبر مع شاحناتهم

---

(١) مركز الناطور، ٤/ ١/ ٢٠٠٩م.
(٢) مقال محمود الزعبي، مركز الناطور، ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٨م.
(٣) تقرير واشنطن، ١٠/ ١/ ٢٠٠٩.

أياماً طويلة حيث ملأت أرض الإستاد الرياضي في العريش . . أبلغني بعض السكان أن بعضها تعرض للسرقة ويباع بثمن بخس في الأسواق»[١] .

في العوجة: كان أسطول من الشاحنات يمرُّ بسهولة عبر المعبر ناقلاً المواد الغذائية لشركة إسرائيلية متعاقدة مع قوات الاحتلال، بينما كانت الطائرات الإسرائيلية تقصف الشعب الفلسطيني المحاصر في غزة بالجوع والجنود المتخمين والقنابل الأمريكية . . واتفاقيات السلام[٢]!

أليست السياسة عالماً محيراً . . .؟! حيث يكتشف العرب والإسرائيليون أن بينهم «وحدة مصير»، بينما تتحول حماس إلى عدو مشترك، ويتحول مقاتلوها وقادتها إلى «خونة» يبيعون القضية التي «يموتون» من أجلها جوعاً وقصفاً، بينما من يقبض ثمن قتلهم . . . هو البطل!

رابعاً: المحور الإيراني:

مرَّ بنا أن التحالفات العربية مع قوى خارجية كانت على حساب مفهومي «المصالح العربية المشتركة» و«العدو العربي المشترك»، وجاء التحالف مع إيران مقابلاً للتحالف مع الولايات المتحدة، وتساوقت عدة دول في هذا الحلف بالإضافة إلى قوى أخرى لا ترقى لمصاف الدول.

وأول ما ينبغي التركيز عليه هنا هو تحقيق معنى الحلف والتحالف، فللأسف يتم تداول هذا المصطلح للأغراض الدعائية في الإعلام دون تدقيق، بحيث إن الكثيرين باتوا ينظرون بالفعل إلى أن حماس تشارك في تحالف سياسي يجمعها مع إيران

---

(١) مقال: المرفوضون على معبر رفح، أحمد منصور، المستقبل العربي.
(٢) الجزيرة نت، ٣٠/ ١/ ٢٠٠٩م، نقلاً عن الأسبوع القاهرية.

وسورية وقطر وحزب الله، وهذا من الناحية العلمية فيه تجاوز فادح.

ولكي ينشأ أي تحالف سياسي لا بد من أن يجمع أطرافَه حدٌّ معين من المصالح المشتركة، هذه المصالح قد تكون متماثلة، مثل: التحالف الأمريكي - الإسرائيلي، وقد تكون متكاملة، مثل: التحالف الأمريكي - الباكستاني في حرب الإرهاب، والأصل أن تكون التحالفات بين الدول وليس بين الدول والأحزاب أو المنظمات، وحتى إذا سلمنا جدلاً بإمكانية ذلك؛ فإن وجود قدر من المصالح المشتركة بين طرفين أو أكثر لا يعني ذلك أن يترتب عليه انعقاد تحالف رسمي أو غير رسمي، فقد يُكتفى بالتنسيق فيما يتعلق بهذه المصالح دون الحاجة إلى عقد تحالفات تكون ملزمة باتباع سياسات معينة[1].

تفكيك العلاقة بين حماس وإيران:

في حالة حماس وإيران لا توجد أي دلالة على سياسات مشتركة يتم اتباعها من قبل حماس التزاماً بهذا التحالف، ويمكن بتتبُّع أداء حماس منذ نشأتها معرفة أن ما تُتهم به الحركة حالياً ويسوقه الإعلام الرسمي على أنه من مقتضيات التحالف مع إيران؛ إنما هو نهج ثابت للحركة من جهة، ونهج ثابت لدى من يهاجمونها من جهة ثانية، ومن هذه الاتهامات: تقديم الذرائع للاحتلال، وإجهاض جهود التسوية وعرقلة عملية السلام، وتعمد عدم تجديد الهدنة لأهداف خاصة، والسعي للسلطة، والسعي للانفراد بالساحة الفلسطينية بعيداً عن فتح... إلخ.

مؤشر آخر لتحديد طبيعة العلاقة السياسية بين حماس وإيران، وهو: عند عقد أي تحالف سياسي يكون من السهل تماماً تحديد الأطراف الخارجيين المستهدفين بهذا

(١) انظر كتاب: العلاقات السياسية الدولية، د. إسماعيل صبري مقلد، ص٢٧١.

التحالف[١]، إذن في حالة حماس وإيران من هي الأطراف الخارجية المستهدفة؟

القول: إن أمريكا أو «إسرائيل» هما الطرفان المستهدفان غير صحيح لأسباب، أولاً: لأن حماس لديها إصرار على تركيز معركتها مع الاحتلال الصهيوني فقط دون تمديد الصراع إلى خارج فلسطين، ثانياً: لو استخدمنا نظرية المباريات المعروفة في تحليل الصراعات الدولية؛ فإنه يوجد نوعان من الصراعات: صراع تنافسي، وآخر غير تنافسي؛ والأول تكون فيه خسارة طرف مكسباً للطرف الآخر بالدرجة نفسها والعكس صحيح، أما الصراعات غير التنافسية فإن مصالح أطرافها لا تكون متعارضة بالكيفية بنفسها السابقة، وإنما تتداخل إلى حد يسمح بالمساومة وتقديم التنازلات المتبادلة للوصول في النهاية إلى نقطة اتفاق وسط وهو ما يساعد على التحول بعلاقات أطراف ذلك الصراع من وضع الصراع إلى وضع التعاون[٢].

لو نحينا جانباً مشكلة تطوير القدرات النووية الإيرانية فإنه سيكون صعباً تحديد نقاط اختلاف بين واشنطن وطهران تستدعي صراعاً تنافسياً، بل على العكس تلاقت مصالحهما على نحو شبه تحالفي في أهم ثلاث قضايا واجهتها السياسة الخارجية الأمريكية في العقد الأخير: أفغانستان طالبان، العراق صدام، الحرب على «الإرهاب».

فيما يتعلق بالمشكلة النووية فإن سياق تصاعدها أو تناقصها أو استقرارها بوصف ذلك موضوع صراع قابل للمساومة إلى درجة كبيرة، هذه المساومة هي مضمون الحل الدبلوماسي الذي تقدمه إدارة باراك أوباما على الحسم العسكري.

---

(١) السابق، ص٢٧١.

(٢) السابق، ص٢٤٩.

وبغض النظر عن النتيجة، فإن تنحية الإدارة الأمريكية لأي نقاط اختلاف أخرى والتلويح بإمكانية تضمين إيران في معادلة أمنية في المنطقة ضمن باقة من الحوافز المغرية والتي تشمل تقنيات حديثة واستثمارات هائلة؛ إن ذلك يقدم دليلا لا لَبْس فيه على أنه لا يوجد صراع تنافسي - بالمعنى الاصطلاحي - بين أمريكا وإيران، حتى لو فشلت الجهود الدبلوماسية في حل الأزمة. ويؤيد البرادعي هذا الرأي «الخلاف الغربي - الإيراني في الأساس منافسة على السيطرة الإقليمية، وعلى الدور الذي يود كلا الطرفين لعبه في المنطقة»[١].

إذن لا يوجد بين حماس وإيران عدو مشترك مستهدف بالتحالف السياسي، وما يقال عن استهداف إيراني لإسرائيل غير صحيح، نعم! قد تكون «إسرائيل» هي التي تفكر في استهداف إيران لمنعها من حيازة السلاح النووي، ولكن بالنسبة لإيران لا توجد مشكلة، والدعم الذي يقدم إلى الفصائل الفلسطيني يأتي في سياق صراعها - غير التنافسي - مع الولايات المتحدة من جهة، وصراعها مع القوى العربية الإقليمية من جهة أخرى.

وفي المقابل يمكن القول: إن أعداء إيران، أو بالأحرى الدول المستهدفة ضمن مشروعها التوسعي الإقليمي ذي الصبغة الطائفية؛ هي دول تحرص حماس - من رؤية إستراتيجية - على دعم علاقتها بها بغض النظر عن التوترات المرحلية، فهي دول لا يمكن لحماس أن تقطع علاقاتها معها تحت أي ظرف، حتى لو مرت العلاقات بمرحلة فتور أو انقطاع مؤقت، ومن هذه الدول: مصر، السعودية، الكويت، وهذه الدول مستهدفة في الوقت نفسه بالمشروع الإيراني.

---

(١) حوار مع صحيفة الحياة، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

خلاصة ما سبق أن القدر المشترك من المصالح بين إيران وحماس لا يقتضي من حماس الخروج عن ثوابتها الفلسطينية أو العربية، بل يمكن القول: إنه نوع من السعي الإيراني لإيجاد موطئ قدم في القضايا العربية الساخنة، وهو ما يمكن تفسيره قياساً على سياسة الاحتواء التي اتبعتها الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفييتي السابق.

إيران وسياسة الاحتواء:

تقوم نظرية الاحتواء على جسِّ نبض دائم واستغلال الحلقات الضعيفة لدى قوى ما، أو البحث عن فراغات قوى يمكن النفاذ منها، واستخدامها بوصفها نقطة وثوب واختراق نحو إحداث تغييرات تتواءم والأهداف بعيدة المدى لهذه الإستراتيجية[١]. وما تفعله إيران قريب من ذلك، فهي تبحث عن الحلقات الرخوة في المحيط العربي وتبادر باختراقها تدعيماً لأمنها القومي على حساب الأمن القومي العربي، هذه الحلقات منها: لبنان، فلسطين.. وغيرها، ولو أن السياسة العربية لم تترك هذه الحلقات «رخوة» لما وجدت إيران منفذاً للاختراق.

ولتقريب الوضع بصورة أكثر دقة فإنه في بعض التحالفات - بافتراض وجود تحالف - تضطر القوة الأكبر إلى التنسيق مع طرف ضعيف - حماس - من أجل امتلاكه لمزية إستراتيجية مهمة - القضية الفلسطينية «حلقة رخوة» - وفي هذا السياق يتم التغاضي عن اعتبارات القوة، وتقديم بعض التنازلات - الدعم المالي - في مقابل الإفادة من تلك المزية، يعني بمجرد أن تصبح إيران داعماً أساسياً للقضية الفلسطينية فهذا يعطيها وضعاً تفاوضياً وإقليمياً متقدماً، دون أن تكون مضطرة إلى إلزام حماس بأجندة سياسية عامة أو تفصيلية، بهذه الكيفية فإنه ينطبق على حماس وصف «متلقٍّ

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، ص٢٥٢.

للدعم المالي» أكثر من وصف «متلقٍّ للتوجيه السياسي».

وتأكيداً لحقيقة «التسلل» الإيراني إلى قضايا المنطقة وكون هذا التسلل سيكون له تداعياته المستقبلية؛ أصدر مركز سابان التابع لمعهد بروكينجز الأمريكي بالتعاون مع مجلس العلاقات الخارجية كتاباً مهماً بعنوان: «استعادة التوازن.. إستراتيجية شرق أوسطية للرئيس القادم»، يقدم فيه مجموعة من الخبراء خريطة طريق وتوصيات لإدارة أوباما فيما يتعلق بالشرق الأوسط، ومنها ما أكده الكاتبان سوزان مالوني وراي تاكي أن «إيران اكتسبت نتيجة التطورات الأخيرة على الساحة الإقليمية وسائل كثيرة للمساهمة في المعضلة الأمنية التي يشهدها الشرق الأوسط، وهو ما أوجد إدراكاً بأن هذه المعضلات الكثيرة لا يمكن أن يتم حلها دون مساعدة منها»[1].

ماذا عن دور حماس؟

سواء كانت العلاقة بين حماس وإيران تحالفاً أو تنسيقاً أو غير ذلك؛ فإنه بأي حال من الأحوال يجب ألا يكون على حساب الأمن القومي العربي، فإن ما يُقال عن مشروع إيراني توسعي ذي أبعاد طائفية لا يمكن إنكاره أو تجاوزه بحال، وفي حالة حدوث أي تصعيد إيراني - مباشر أو غير مباشر - في بلد عربي ما؛ فإن صورة حماس لن تكون إيجابية لدى شرائح عريضة من العالم العربي، وهناك دول عربية يحمل شعبها مشاعر مودة وتأييد للحركة وللمقاومة الفلسطينية، وهي في الوقت نفسه مهددة من قبل المشروع الإيراني، مثل: البحرين.

وفي السياق نفسه توجد شرائح أخرى تحمل تأييداً واسعاً للحركة، ولكنها في الوقت نفسه تدرك جيداً أبعاد المشروع الإيراني، وهو مشروع يتضمن الخطر سواء

---

(١) إسلام أون لاين، ٦/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

كان في جانبه السياسي أو العسكري، وسواء ظلت العلاقة مع الغرب متوترة أو تم تطويرها. ويذكر محمد البرادعي تجربته الخاصة في هذا الصدد فيقول: «ما يقلقني هو أنه سيكون هناك حل للمشكلة الإيرانية، وسيكون جزء أساسي منه مرتبطاً بالأمن الإقليمي ودور إيران في المنطقة. لذلك أذكر دائماً للقادة العرب كافة الذين أقابلهم وفي مقابلاتي الخاصة وتصريحاتي العلنية أن الدول العربية يجب أن تكون جزءاً من عملية التفاوض مع إيران؛ لأن أي حل يتعلق بالوضع الإقليمي سيكون جزء منه على حساب الدول العربية أو يمسها. ولا أفهم كيف تكون هذه الدول غائبة عن مشكلة كهذه تراها حيوية بالنسبة إليها؟ وكيف يمكن الحل من دون أن يكون العرب جزءاً منه؟»[١].

أعتقد أن حماس يجب أن تصوغ إستراتيجية متوسطة الأمد لحل هذه الإشكالية تعتمد على ثلاثة محاور:

المحور الأول: التعامل مع الدعم الإيراني - المالي تحديداً - بوصفه مصدراً مؤقتاً يترافق مع سياسة «البحث عن مصدر بديل»، مع الفصل في تلقي الدعم بين كل من إيران، وسورية، وقطر، فالإشكال الأكبر هو «إيران».

المحور الثاني: هو إيجاد آلية مختلفة لإدارة العلاقات مع الدول العربية تعتمد على تنمية قدرة قادة الحركة على التفاوض استناداً إلى مبدأ «طغيان الضعيف»، وهو مبدأ معروف في إدارة المفاوضات يقوم فيه الطرف الضعيف باستغلال توازنات القوى من أجل تقوية وضعه التفاوضي[٢].

---

(١) حوار مع صحيفة الحياة، ٢٠/١٢/٢٠٠٨م.
(٢) انظر: مقدمة في علم التفاوض، ص١٠٨.

المحور الثالث: تطوير خطاب تطميني للشارع العربي - أو قطاعات منه - الذي يشعر بالقلق من تنامي العلاقة مع إيران. خطاب يعتمد على الحقائق وليس على مبدأ «خاطبوا الناس على قدر ثقافاتهم»، ولا بأس من المواجهة بالمؤلم من هذه الحقائق، فالوضوح هو ما يُنتظر من الحركة وما هو مأمول من قادتها.

وماذا عن الموقف العربي:

العرب هم الذين صنعوا نصف المشكلة عبر تاريخها الطويل منذ عشرات السنين، وما يحدث هو من تداعيات الخلل القديم مضافاً إليه خلل جديد، وآخر في الطريق. وإلقاء التهم لم يُفِد بشيء سوى كشف الأوراق بصورة مبالغ فيها تدفع بالطرف الآخر بدرجة أكبر في اتجاه إيران، وإضافة كلمة «فارسي» إلى كل ما تمارسه حركة حماس خطاب لم يعد يؤثر في الرأي العام العربي.

على قناة النيل الفضائية استضاف برنامج مباشر رئيس تحرير صحيفة الجمهورية - حكومية - الذي قال عن أزمة المعبر: «فتح معبر دائم في رفح كان سيناريو فارسي غربي مفتعل»[1]، لا أدري كيف يجمعون الفارسي مع الغربي حيناً، بينما يجعلون حماس تصطف مع الفارسي ضد الغربي أحياناً أخرى.

وأيضاً كون حماس تستغل التوازنات الموجودة في المنطقة والمفروضة عليها بغض النظر عن كونه عيباً أو لا؛ فإنه سياسة متبعة من غالبية الدول العربية، على سبيل المثال: لماذا تبث القنوات الشيعية ذات الخطاب الأشد تطرفاً على قمر نايل سات حتى الآن؟ ومنها: المنار، والعالم، والأنوار، والفرات .. إلخ، وكلها موالية لإيران،

---

(١) قناة النيل، ٢٨/ ١/ ٢٠٠٩م.

وتدبج خطاباً منتقداً لدول مجلس التعاون الخليجي بل مصر أيضاً، ودعوة حسن نصر الله الجيش المصري إلى التمرد نقلتها قناة المنار.

وسواء كانت الأسباب اقتصادية أو من قبيل التوازنات فلماذا لا يُنظر إلى تطوير العلاقة مع حماس على أنه من ضمن هذه التوازنات؟ فعلى الرغم من كل الضغوطات وقيود التحالفات السياسية؛ فإنه تبقى مساحة حرة للحركة وإبداء المرونة كما يقول حسنين هيكل.

إن الدور المصري في القضية الفلسطينية هو دور من قبيل «التوقيف» بمعنى أنه لن يقوم به بلد عربي آخر، وإن حفاظ مصر على دورها الإقليمي الذي يُفترض أن يكون الأكثر أهمية في مواجهة النفوذ الإيراني يعتمد بصورة مباشرة على احتواء أطراف القضية الفلسطينية كافة، فإيران تهدف بدرجة أساسية إلى تهميش الدور المصري، ومهما قيل عن دور تلعبه حماس في هذا المجال فإن ما يفصل قادة حماس عن طهران آلاف الأميال، وما يفصلهم عن مصر مئات الأمتار.

وبعض الباحثين الغربيين يذكر أن حماس حريصة على علاقاتها مع مصر لدرجة مقاومة ضغوط سورية وإيرانية بإنهاء دور الوساطة المصرية في قضية الجندي الصهيوني جلعاد شاليط، ويذكر في السياق نفسه قبول حماس بقرار جامعة الدول العربية الذي يمنح القاهرة السلطة للتوسط في الخلافات الفلسطينية الداخلية[1]، كما أن قادة الحركة يصدرون بعض التصريحات التي يمكن أن تصلح أساساً لبناء الثقة، مثل تصريح د. محمود الزهار: «أكدنا على سياستنا بأننا لا نريد أن نكون في لعبة

---

(١) تقرير واشنطن، ١٠/ ١/ ٢٠٠٩م، مقالة بعنوان: تدهور العلاقات بين مصر وحماس، محمد ياغي، ديفيد اسكينكر، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى.

المحاور الدولية، كل القوى العربية يجب أن تدعم القضية الفلسطينية، سياستنا تجاه الدول العربية: لن نكون جزءاً من الإخلال بالأمن القومي لأي دولة عربية، وهذا ما أكدناه أيضاً في مصر وفي سورية وفي كل مكان وفي قطر أيضاً، ونؤكده هنا اليوم في لبنان»[١].

ومن المؤشرات على وجود «ممانعة» داخل حماس للتماهي مع الأجندة الإيرانية هو اختلافها الكبير عن حركة الجهاد الإسلامي من حيث التأثر والتجاوب والانفتاح على الإيرانيين، ورغم أن كليهما يحتفظ بعلاقة جيدة مع طهران، فإن اختلاف الأداء يعطي دلالة على قوة التماسك، وهذا ما ينبغي أن يدفع الكتّاب والمثقفين والإعلاميين ووسائل الإعلام العربية إلى أن يتبنّوا نهجاً أكثر موضوعية مع الحركة، بدلاً من ذلك النقد الذي لا يُقنع حتى كاتبه.

ويقول أحد مهاجمي حماس فاتحاً أمامها باب التوبة «ثمة فرصة أمام حماس وكل الفصائل التي اكتشفت حجم الخداع الذي تعرضوا له على يد جهات ودول لم تقدم سوى كلمات زاعقة»[٢]، أيُّ كلمات زاعقة تلك التي يتحدث عنها؟ إن التقدير يدور حول ٣٠٠ مليون دولار تقريباً تقدمها إيران سنوياً إلى حكومة حماس، بخلاف مجالات أخرى للدعم، فهل هذه كلمات زاعقة؟

يقدم د. حسن نافعة تقويماً جيداً للسياسة المصرية مع حماس، وما شابها من قصور، يقول[٣]: «في تقديري، جملة من الأخطاء أهمها:

---

(١) فضائية الجزيرة، حصاد اليوم، ٢٠/ ٢/ ٢٠٠٩م.
(٢) د. حسن أبو طالب، مقال: أي انتصار لحماس؟ مركز الأهرام للدراسات ٢١/ ١/ ٢٠٠٩م.
(٣) د. حسن نافعة، مقال: مصر وغزة وحماس، مصدر سابق.

١ – التأخر في فتح قناة اتصال جيدة وموحية بالثقة مع حماس في مرحلة مبكرة.

٢ – عدم متابعة التنفيذ المتكامل لاتفاق القاهرة عام ٢٠٠٥م.

٣ – التعامل مع حماس باستخفاف عقب فوزها في الانتخابات النيابية.

٤ – عدم بذل جهود كافية أو الضغط لتشكيل حكومة ائتلافية عقب الانتخابات النيابية مباشرة، وهو ما ولد انطباعاً خاطئاً بأن مصر تتبنى السياسة الرامية إلى إفشال حماس.

٥ – القبول بموقف اللجنة الرباعية وممارسة ضغوط على حماس لحملها على الاعتراف بإسرائيل، رغم غياب عرض جدِّي بالتسوية.

٦ – إغلاق معبر رفح على الجانب المصري بعد انسحاب المراقبين الأوروبيين من المعبر على الجانب الفلسطيني، على الرغم من أنها ليست طرفاً في اتفاقية المعابر لعام ٢٠٠٥م.

٧ – إحجامها عن توجيه اللوم لإسرائيل عندما قامت هذه الأخيرة بخرق متكرر لاتفاقية تهدئة لعبت فيها مصر دور الوسيط».

خامساً: رهاب «ما بعد خيار الدولتين»:

«لقد آن الأوان للتوقف عن الادِّعاء بأن الدبلوماسية الدولية الحالية فعالة بشكل يمكن أن يقود إلى إنجاح حل إقامة الدولتين، بل يتوجب ابتكار مقاربة جديدة تعترف بالحقائق المرة.. على الذين يدعمون حل إقامة الدولتين أن يدركوا مدى الانهيار الذي

أصاب الإطار الذي كان يعتمد عليه هذا الحل»[1].

هكذا تكلم ناثان براون الأستاذ المتخصص في دراسات الشرق الأوسط بجامعة جورج واشنطن، وهو أمر لن يسرَّ دولاً عربية تنظر إلى «خيار الدولتين» على أنه المنقذ والمخلص من «صداع» القضية الفلسطينية، ويبدو التمسك بخيار غير ممكن تطبيقه في الواقع كأنه تعبير عن الخوف من البديل، والأمر أشبه بمن يهز جسد حبيب له مات غير مصدق أنه مات ويرفض تصديق من يقول له: إنه مات، لأنه لا يستطيع تحمل تداعيات موته!

وبحسب عدد كبير من الباحثين والخبراء في القضية الفلسطينية - شرقاً وغرباً - فإنه بخلاف خيار الدولتين لا يوجد إلا حلان نهائيان وآخر مرحلي.

النهائيان، هما: خيار الدولة الواحدة ثنائية القومية، وهو خيار مرفوض تماماً من الجانب الصهيوني؛ لأنه يقضي على «نقاء» الدولة اليهودية، بل يهدد بقاءها «يهودية» من الأساس. وعلى الجانب الفلسطيني فإن دولة واحدة تعني عدم عودة اللاجئين لا داخل ٤٨ ولا داخل ٦٧، كما يعني بقاء القدس تحت السيطرة اليهودية.

النهائي الثاني: هو خيار ضم الضفة الغربية إلى الأردن وقطاع غزة إلى مصر، مع اختلاف في التفصيلات.

أما الخيار المرحلي فهو: التعايش المؤقت في ظل الإطار القديم لاتفاق أوسلو للحكم الذاتي مع إمكانية تنفيذ انسحاب أحادي الجانب من الضفة، ويتخلل ذلك

---

(١) ناثان .ج. براون، كبير باحثين في مؤسس كارنيجي، بحث بعنوان: زوال حل الدولتين، موقع مؤسسة كارنيجي.

موجات متتابعة من التهدئة والحروب والعمليات العسكرية والأمنية متفاوتة الحدة.

إن القضية في مجملها هي توافق على موضوع يمكن لجميع الأطراف أن يقبل به مبدئياً، بغض النظر عن إمكان الوصول إلى نتيجة ما. وتعلم أطراف الصراع والدول المعنية أن الصعوبات في طريق تحقيق خيار الدولتين لا يمكن حصرها، وبفرض الوصول إلى صيغه لبدء التنفيذ فإن مشكلات التطبيق وحدها كفيلة بعرقلة المشروع وإعادته إلى المربع الأول من جديد، فقد وضعت إسرائيل ألغاماً في هذا الخيار لا تنتهي، ونستعرض فيما يلي اثنين منها للتمثيل وليس الحصر:

اللغم الأول: على طريق الدولة المستقلة:

لقد كان تأسيس نظام الحكم الذاتي على غزة والضفة بمنزلة تحول في شكل السيطرة الإسرائيلية وليس غياباً لها، وظل مسؤولو السلطة يعملون موظفين لدى وإدارة عليا تملك حق الإشراف والتعديل، وبقيت القرارات الحيوية والمسائل المتعلقة بالسيادة من حق الكيان الصهيوني وحده، مثل: النظام الجمركي، والنظام المصرفي، وأكواد الاتصالات، والتصدير والاستيراد، والسيطرة الجوية والبحرية والحدودية، وإدارة المياه والإمداد بالكهرباء، وتقنين نوعيات السلاح وكمياته المستخدمة من قبل الأجهزة الأمنية، وبقاء الحواجز في معظم مناطق الضفة والتي يتجاوز عددها ٦٠٠ حاجز موجودة حتى الآن، ويخضع لها حتى مسؤولو السلطة... إلخ.

وأغلب هذه القيود يفترض أن تستمر حتى بعد تأسيس الدولة «المزعومة» التي سوف تكون منتقصة السيادة ومنزوعة السلاح ومعتمدة بشكل كلي في اقتصادها على الاقتصاد «الإسرائيلي»، بل إنه منذ الآن يتشدد قادة الكيان في تمسكهم بمكاتب

الاستخبارات التي أنشؤوها داخل الضفة في كل مكان، ويصرون على بقائها حتى بعد إعلان الدولة الفلسطينية[١].

ليتسيا بوكاي، هي أستاذة جامعية فرنسية، عملت مراسلة لصحيفة اللوموند عاشت في الأراضي المحتلة فترة كافية لكي تصدر كتاباً بعنوان «الفلسطيني التائه»، وأهم فصول الكتاب جاء بعنوان: «فلسطين، إسرائيل.. استحالة الفصل» وهو جدير بالقراءة، إذ يقدم معلومات تفصيلية للإجابة عن سؤال: لماذا يستحيل فصل الضفة تحديداً عن الكيان الصهيوني؟

وتذكر بوكاي أن الكيان اتبع منذ بداية الاحتلال سياسة ممنهجة لربط الاقتصاد الفلسطيني - الميت أساساً - بدولة الاحتلال، وتحويل القوى العاملة الفلسطينية إلى عمالة رخيصة تستجدي تصاريح العمل داخل الخط الأخضر، و«أدت هذه السياسة إلى تبعية الأراضي المحتلة (عام ١٩٦٧م) اقتصادياً لإسرائيل، ولكنها ساهمت أيضاً في رفع مستوى معيشة سكان الضفة الغربية وغزة.. فإذا كان الفلسطينيون يشكلون يداً عاملة غير مكلفة للمستثمرين الإسرائيليين؛ فإن الرواتب التي تدفع إلى الفلسطينيين تبقى أعلى من تلك المعمول بها في الأراضي الفلسطينية، وقد تضاعف متوسط دخل الفرد في الأراضي الفلسطينية فيما بين ١٩٧٢م - ١٩٩٢م... وفي الأعوام ١٩٧٠و١٩٨٠م صارت أكثر العائلات الفلسطينية التي تنتمي إلى الفئات الشعبية ترسل على الأقل فرداً منها للعمل داخل إسرائيل.. وخلال العطل المدرسية كان المراهقون يلتحقون بآبائهم ليرفعوا سوية دخل العائلة، وهذه الفئة التي تعمل

---

(١) موقع تقرير واشنطن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

داخل إسرائيل تتكلم العبرية وتنمي بعض الصلات بالمجتمع الإسرائيلي»[١].

ولم يعد من السهل أن يُعرِض شاب في مقتبل حياته أو رب أسرة عن فرصة زيادة دخله بنسبة الضعفين إلى ثلاثة أضعاف أو أربعة أحياناً، فراتب شرطي عادي يعمل في السلطة الفلسطينية يصل إلى ٢٧٠ دولاراً في الشهر، بينما العامل في الكيان يمكن أن يكسب ما بين ١٥ إلى ٤٠ دولاراً في اليوم، وهو ما يعني دخلاً شهرياً بين ٣٦٠ و ٩٦٠ دولاراً في حال استطاع أن يعمل شهراً كاملاً[٢].

وهذه الوضعية المائلة في اتجاه الكيان أنتجت أجيالاً من الشباب الفلسطينيين القابلين للتكيف مع الاحتلال إلى درجة التخلي عن أسمائهم وهوياتهم لتمشية أمورهم، «فؤاد واحد من شباب نابلس عمل في إسرائيل متعهد نقل (نقل أثاث) وهو يحكي: (كنت أقول: إني إسرائيلي، وكذلك أخي صار إسرائيلياً، ولا يمكن التخمين إنه عربي، يتكلم العبرية بطلاقة، ويحكي لهم أنه خدم في الجيش وقتل خمسة عرب، عندها يهنئه الإسرائيليون). . إن خداع الآخر بالتنكر والاستيلاء على أسلوب تعبيره، واستعارة خطابه الأكثر شراسة، حتى لو اضطر الأمر إلى لبس جلد العدو؛ كلها وسائل تستخدم لكسر علاقة الهيمنة»[٣].

«غسان من سكان مخيم جباليا في قطاع غزة، وكان قد تأهل ليصبح مدرساً. . وجد غسان عملاً: جزار في سوبر ماركت في ضاحية من ضواحي عسقلان، يتقاسم مع ثلاثة فلسطينيين آخرين من غزة بيتاً صغيراً. . اكتفى غسان بتغيير اسمه الأول بتواطؤ وتشجيع من زملائه الإسرائيليين إلى اسم آخر عبري تماماً، وهو يشرح السبب

(١) الفلسطيني التائه، ليتسيا بوكاي، ص١١٨ - ١١٩.
(٢) السابق، ص١٢٠.
(٣) السابق، ص١١٩ - ١٢٠.

كما يلي: لكي لا نرعب الزبائن . . إن غسان على استعداد لأن يذوب في وضع المُسَيطَر عليه حين يقبل بالتخلي عن هويته العربية»[١] .

ماذا كانت النتيجة؟ «عندما تفرض السلطات الإسرائيلية إغلاقاً على الأراضي الفلسطينية يتضاعف عدد العاطلين عن العمل مرتين أو أكثر ، ويصل إلى ما مقداره ٥ , ٣٢٪ في غزة و٨ , ٢٣٪ في الضفة»[٢] .

وعلى مستوى السلطة تحول أغلب المسؤولين إلى «رجال أعمال» ومقاولين يؤدون الخدمات والأعمال لحساب مستثمرين ومسؤولين عسكريين سابقين في الكيان الصهيوني . إن نموذج «جميل الطريفي» الذي كان وزيراً للشؤون المدنية يقدم توصيفاً دقيقاً لهذه الحالة ، فهو يرأس شركة بناء ، ومن خلال هذا العمل يتابع أنشطته التي كان قد بدأها خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي . لقد بنى قواعد عسكرية إسرائيلية في الضفة الغربية لمصلحة الاحتلال ، أما اليوم فهو بصدد شق طرق تربط المستوطنات اليهودية بإسرائيل . إن هذه الأعمال تحظى بحماية مشتركة من أصحاب القرار الفلسطينيين والإسرائيليين على السواء»[٣] .

وبهذه الكيفية فإن (الطريفي) الذي يمثل السلطة ينتقد الاحتلال بالنهار على سياسته الاستيطانية التوسعية ويتهمه بعرقلة الحل النهائي ، بينما في الليل يدعو أن يطال الاستيطان كل الضفة لتتسع أعماله .

هذه هي صورة لبعض أوجه التناقض التي نجح الكيان في إيجادها داخل المجتمع

---

(١) السابق ، ص١٢٠ .
(٢) السابق ، ص١٢٠ .
(٣) السابق ، ص١٤٥ .

الفلسطيني لتجعله غير مؤهل للعيش في ظل دولة مستقلة .

قد يظن بعضهم أن اليمين الإسرائيلي نتيجة تطرفه ضد العرب يطالب بتقليص فرص عمل الفلسطينيين داخل الخط الأخضر، والحقيقة أن الأمر على العكس من ذلك تماماً، فَلأن اليمين يرفض أساساً فكرة فصل الضفة عن الكيان يشجع تماماً على استقبال الفلسطينيين للعمل داخل الخط الأخضر، وحكومة نتنياهو تحديداً التي تشكلت عام ١٩٩٦م قللت من الشروط المفروضة على دخول الفلسطينيين إلى أراضي ٤٨ ، حتى إنها خفضت حد السن من ٢٨ عاماً إلى ٢٣ عاماً، وبدأت حملة لطرد المهاجرين غير القانونيين الذين ينافسون العمالة الفلسطينية[١] .

اللغم الآخر:

لغم آخر زرعه الكيان في طريق خيار الدولتين، وهو تأسيس البنية التحتية وتنظيم أمور الضفة بطريقة ترسخ تفتتها والتفاف مناطقها حول البؤر الاستيطانية المنتشرة فيها كالسرطان، وهناك – على سبيل المثال – إشكالية المياه، فـ ٦٠٪ من مياه الكيان تأتي من الطبقات الجوفية المشتركة مع الضفة الغربية، وقد بات من أهم أهداف «إسرائيل» أن تحمي مصادر المياه من استخدام الفلسطينيين[٢]، أو بالأحرى تستولي عليها، وعندما تُؤسَّس دولة فلسطينية فسوف يكون التحكم في المياه خاضعاً لسيطرة اليهود مباشرة أو عن طريق اتفاقيات مجحفة .

وما يثير الحنق أن التمويل الذي تقدمه الدول المانحة الغربية التي تُظهر تأييدها لخيار الدولتين يتم استخدامه على الأرض لترسيخ استحالة الفصل بوصف ذلك

(١) السابق، ص١٢٢ – ١٢٣ .

(٢) تقرير واشنطن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨م .

أمراً واقعاً، وعلى سبيل المثال: بدأت الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية تنفيذ مشروع خاص بالبنية التحتية لتحسين إدارة المياه في مدن الضفة الغربية وقراها، وبدلاً من تطوير نظام موحد يربط القرى بعضها ببعض؛ تبنى المشروع أسلوب الفصل، وأنشأ نظم حفظ وإدارة مياه في كل قرية على حدة، في حين أن واقع الحال في الأراضي الفلسطينية هو وجود الحاجة إلى نظام مركزي لإدارة المياه، خاصة أن نظام الفصل هو الأكثر كلفة اقتصادياً، لكن إنشاء نظام غير متصل يخدم الاحتلال الإسرائيلي ورغبته في تقطيع أوصال الأراضي الفلسطينية إلى وحدات جغرافية منفصلة[١].

مصر - الأردن، والخيارات البديلة:

ربما تتحمل دول عربية مثل مصر استمرار حالة التوتر في الأراضي المحتلة لفترة طويلة، ولكن ما لا يمكن تحمله هو استبدال خيار الدولتين بخيار الضم، أي: ضم غزة إلى مصر، والضفة إلى الأردن، وحسب التعبير الصهيوني إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٦٧م.

١ - فصل الضفة عن غزة: ضم الضفة إلى الأردن وغزة إلى مصر:

«يشبه قطاع غزة اليوم حاوية ماء كبيرة، مع فتحتين ضيقتين عن جانبيها، بحيث سدت كل فتحة بإصبع والماء يريد الاندفاع خارجاً. في أحد الجانبين تسد إسرائيل الثقب، ومصر في الجانب الثاني. هذه معركة استنزاف نتائجها تاريخية. أول من يتخلى ويخرج ولو للحظة قصيرة إصبعه سيندفع الماء عنده على الدوام... لا تريد مصر ولا إسرائيل المسؤولية عن غزة، ولهذا تغلقان الحدود. أولى من تتخلى

(١) انظر: كتاب: بروز النخبة الفلسطينية المعولمة، ساري حنفي، وليندا طبر، ص٥٠.

ستكون غزة من نصيبها، هدية..»[1]، هذا هو وصف المحلل السياسي الإسرائيلي غاي بيخور للصراع الضمني بين مصر والكيان حول قطاع غزة، إنه ليس صراعاً على الاستحواذ، ولكنه صراع على التَّرْك.

ووَفْق هذه الرؤية يفسر بعضهم الحرب على غزة ٢٠٠٩م بأنها دفع للمياه في اتجاه «الثقب المصري»، فالاحتلال لا يعاني ضغوطاً من حصاره للقطاع، بينما تحولت رفح المصرية إلى منفذ رئيس ووحيد يجعل مصر واقعة تحت ضغط مستمر: إما أن تفتح المعبر وإما أن تصبح متواطئة بنظر الرأي العام العربي، وكان الجنرال الصهيوني المتقاعد جيورا إيلاند قد كتب مقالاً في يديعوت أحرونوت عقب اقتحام معبر رفح بعنوان: «الفلسطينيون يسجلون هدفاً إسرائيلياً في المرمى المصري»[2].

وأصاب الفعل الإسرائيلي هدفه وأربك السياسة المصرية، وظهر ذلك واضحاً في آلية فتح المعبر، حتى اتخذ الوضع صورة أقرب إلى الهزل في بعض الأحيان؛ عندما ينقل مراسلو أكثر من وسيلة إعلامية أن المعبر مغلق، بينما يصر مسؤولون مصريون أن المعبر مفتوح ولم يغلق، مع أن المشكلة بالنسبة لمصر في فتحه وليس في غلقه.

وقد وُصِف الموقف في الإعلام المصري بأنه «فخ» تسعى إسرائيل إلى توريط مصر فيه، وأن حماس تنساق في الاتجاه نفسه، وصرح وزير الخارجية أبو الغيط أن مصر أحبطت فخاً نُصِب لها، بينما قال محمد إبراهيم رئيس تحرير صحيفة الجمهورية في قناة النيل: «هو في البداية مكانش فخ واحد، هو كان أكثر من فخ»[3].

---

(١) غاي بيخور، يديعوت أحرونوت، مقال: دعوا المصريين يدخلون، ٢١/٦/٢٠٠٧م.
(٢) مركز الناطور، ٤/١/٢٠٠٩م.
(٣) برنامج مباشر من القاهرة، قناة النيل، ٢٨/١/٢٠٠٩م.

لكن لماذا تزهد مصر إلى هذه الدرجة في ضم قطاع غزة إليها؟

بغض النظر عن حقوق الشعب الفلسطيني وثوابت القضية . . إلخ؛ فإنه توجد أسباب أخرى - وهي بالطبع تؤدي إلى حركة حماس - يصفها الوزير الأردني السابق - صالح القلاب - الذي لا يكنُّ وداً لحماس: «لا توجد أي حاجة لمصر بستين كيلومتراً مربعاً هي عبارة عن علبة سردين ينحشر فيها نحو مليون ونصف المليون إنسان، ومصر تعرف أن العودة إلى غزة وفقاً لما كان الوضع عليه قبل أربعين عاماً هي بمثابة وضع قنبلة موقوتة في جيبها . . . إنه غير ممكن أن تخاطر مصر التي تعاني من صداع الإخوان المسلمين المؤلم باستدراج صداعٍ إضافي هو صداع حماس، التي ارتباطها بإيران وغير إيران غير خافٍ والتي حولت قطاع غزة إلى بؤرة عنف وإلى مستودع للأسلحة والمتفجرات التي في حال إلغاء الحدود مع مصر فإنها ستصل حتماً إلى أيدي المتطرفين في الساحة المصرية»[١].

وما زاد الانزعاج المصري من حماس أمران، أولهما: أن عملية الحسم الحمساوية في غزة شجعت الكيان للتقدم خطوة في اتجاه الترويج للضم، وقد صرح سيلفان شالوم وزير الخارجية الأسبق عقب سيطرة حماس على القطاع: «مصير الضفة سيكون مرتبطاً بالأردن، بينما سيرتبط مصير قطاع غزة بمصر»[٢].

والأمر الثاني هو تصريح د. أحمد يوسف وكيل وزارة الخارجية في غزة أنه يمكن فصل غزة اقتصادياً عن الكيان وربطها بمصر على أن يتم تنسيق الحدود بينهما بعيداً عن الاتفاقيات الموقعة سابقاً، وعُدَّ هذا مصرياً بمنزلة تشجيع لإسرائيل على المضيِّ في

(١) صالح القلاب، مقال: بعد أحداث غزة هل تعود مصر إلى القطاع والأردن إلى الضفة الغربية؟ الشرق الأوسط، ٣١/١/٢٠٠٨م.
(٢) مركز الأسرى، إذاعة الجيش الإسرائيلية، ١٨/٦/٢٠٠٧م.

سياسة إلحاق القطاع بمصر، «مثل هذه الدعوات غير المدروسة جيداً تكشف عن جوانب خطيرة ونتائج سياسية وإستراتيجية تضر بالقضية الفلسطينية جملة وتفصيلاً»[1].

٢ - سيناء.. هل تصبح غزة الكبرى؟

قَدِمَ هيرتزل إلى مصر في سياق مساعيه لتنشيط الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبدأ في طرح مشروع آخر لتوطين عدد كبير من اليهود في سيناء بوصف ذلك خطوة أولى، يبدأ من العريش وينطلق منها متوسعاً، وذهب هيرتزل فزار منطقة العريش والوديان المحيطة بها، والتقى بالخديوي عباس حلمي الثاني وتحدث إليه في مشروعه الذي يتضمن تأجير مساحة أرض قدرها ٦٨٠ ميلاً مربعاً حول العريش عدَّها هيرتزل منطقة تجمع وتركيز ووثوب، وكان اقتراحه أن تؤجرها المنظمة الصهيونية لمدة ٩٩ سنة وأن تكون بشكل مباشر تحت حماية الحكومة البريطانية وبمقتضى تعهد موقَّع وموثَّق.

ولم يَبدُ أن لدى الخديوي اعتراض كبير، وكان الذي تصدى لمشروع هيرتزل مع الأسف هو اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر وكان اعتراضه فنياً بالدرجة الأولى واعتمد فيه على تقديرات المهندسين الإنجليز لحجم المياه المطلوبة للمشروع من موارد النيل، وكان رأي المهندسين الإنجليز أنه من الصعب توفير كمية المياه المطلوبة لمشروع هيرتزل؛ لأن ذلك يؤثر على الزراعة في مصر، وعلى إنتاج المحصول الحيوي لمصانع لانكشاير في إنجلترا وهو القطن المصري[2].

وفي عام ١٩٢٩م نشرت مجلة العصور - للكاتب عبد الحكيم الجهني - أن عضو مجلس العموم البريطاني (ود جوود) تقدم بطلب اقترح فيه أن تتنازل مصر لفلسطين

---

(١) د. حسن أبو طالب، مقال: أزمة غزة ومسارات الحركة المصرية، مركز الأهرام ٦/ ٢/ ٢٠٠٨م.
(٢) المفاوضات السرية، ١/ ٧٣ - ٧٤.

عن شبه جزيرة سيناء، وأشار إلى أن اليهود يُرسلون بعض الأساتذة والأحبار إلى طور سيناء ليقوموا بتنقيبات عن التركة «الموسوية» هناك حيث كان التيه، وحيث يقال: إن بعض المهندسين اليهود تمكنوا خلال الحرب العالمية الأولى من استكشاف أن الجدب في سيناء ليس إلاّ أكذوبة قارحة، وأنه توجد تحت الطباق الرملية مجار للمياه ومنابع للخصوبة[١].

وفي عام ١٩٥٥م ظهر مشروع آخر للتوطين في سيناء باسم «مشروع جونستون»، وهو للفلسطينيين هذه المرة، لكنه لقي مواجهة عارمة شاركت فيها جماعة الإخوان المسلمين عبر التظاهرات والاحتجاجات الجماهيرية العنيفة[٢].

واستمر قادة الكيان ومسؤوليه في إطلاق دعاوى توطين الفلسطينيين في غزة على فترات، ففي العام ٢٠٠٢م ذكر مجلس المستعمرين الإسرائيلي أنه يجب أن تمتد حدود قطاع غزة إلى ما وراء خط الحدود الراهنة بين مصر وإسرائيل مقتطعة جزءاً بسيطاً من سيناء يسمح بتوطين بعض الفلسطينيين به حتى يخف الضغط عن القطاع[٣].

وفي عام ٢٠٠٤م اقترح رئيس مجلس الأمن القومي الصهيوني جيورا إيلاند على آرئيل شارون ضم ٦٠٠ كم إلى قطاع غزة من شمال سيناء، واستخدام هذه المساحة في بناء ميناء دولي ومطار دولي ومدينة يعيش فيها مليون فلسطيني، وضم ٦٠٠ كم من مساحة الضفة الغربية إلى إسرائيل لضمان حدود آمنة، ومنح المصريين

---

(١) طلعت رضوان، مقال: المشروع الصهيوحمساوي لاحتلال سيناء، مختارات إسرائيلية ٢٠٠٨م.
(٢) حماس، الفكر والممارسة السياسية، ص٢٢.
(٣) الأهرام، ٤/ ٢/ ٢٠٠٨م.

تعويضاً إقليمياً في النقب الجنوبي يصل إلى ١٥٠ كم وتعويضات أخرى على شكل مساعدات دولية وتنمية اقتصادية وحفر نفق يصل مصر بالأردن شمال إيلات، ونقل مساحة صغيرة حوالي ١٠٠كم من أراضي الأردن إلى الفلسطينيين[١].

وفي تصريح لصحيفة (ذي جويش نيوز) البريطانية قال كبير حاخامات اليهود الإشكناز (يونا متزغر): إنه وجَّه الدعوة إلى كل من بريطانيا والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأمريكية للمساعدة في إقامة دولة فلسطين في صحراء سيناء المصرية، ونقل سكان غزة من قطاع غزة إليها، وكشف النقاب عن أنه بحث هذا الموضوع مع مسؤولين في إسرائيل وصفهم بالحكماء[٢].

وتذكر مصادر صحفية مصرية معلومات لها دلالات خطيرة لو صحت، وهي أن مقدمات تطبيق هذا المشروع بدأت على الأراضي المصرية بالفعل منذ عام ١٩٩٦م، أولاً بما تردد حول توقيف منح الترخيص بالبناء لأبناء رفح المصرية على مساحة تمتد أكثر من ٦ كم بطول الحدود المصرية - الفلسطينية، وثانياً بشراء كميات هائلة من الأراضي في هذه المنطقة؛ سواء كان ذلك من قبل الفلسطينيين، أو من قبل النخبة الاقتصادية المصرية الجديدة، التي تدرك قواعد عملية ما يُعرف بـ(تسقيع الأرض) ثم بيعها في اللحظة المناسبة. وثالثاً بتحديد منطقة على شكل شبه منحرف، يمتد ضلعها الغربي على شاطئ البحر مسافة ٤٠ كم من نقطة التقاء الحدود المصرية - الفلسطينية، ثم ضلع جنوبي يمتد بالمسافة نفسها. ومن رأس هذا الضلع يمتد الضلع الشرقي ويتقابل عند نقطة التقاء الحدود الثلاثية لمصر وفلسطين وصحراء النقب الإسرائيلية. كما تم

---

(١) صحيفة هآرتس الإسرائيلية، ٤/ ٦/ ٢٠٠٦م، مجلة مختارات إسرائيلية يوليو ٢٠٠٦م.

(٢) مقال فؤاد معمر، مركز الناطور، ٤/ ١/ ٢٠٠٩م.

تحديد ١٥٠ متراً تمتد بطول الحدود مع قطاع غزة - بوصف ذلك مرحلة أولى - سيتم هدمها تماماً وترحيل أهلها[١].

ورغم كل هذه المعلومات فإن تطبيق هذا المشروع غير ممكن في ظل التوازنات السياسية الحالية، ويحتاج الأمر إلى تغييرات جذرية في المنطقة ليسهل تمرير هذا المشروع، ويبدو خيار الضم أقرب، وعادة ما يلجأ الإسرائيليون إلى الترويج لهذه السيناريوهات الصعبة من أجل تمرير ما هو أقل صعوبة، كما أنه توجد ملاحظة أخرى متعلقة بوضع حماس في هذه المعضلة، وهي أن قِدَم هذه المشاريع يؤكد حقيقة أن «حشر» الحركة في كل مصيبة أو أزمة تلحق بالقضية الفلسطينية هو مسلك متكلف متعنت يندرج ضمن تصفية الحسابات لا أكثر.

والتعلل بأن سيطرة حماس على غزة فتحت الباب لهذه المشاريع كونها فصلت الضفة عن القطاع؛ مردود عليه، فمنذ العام ١٩٤٨م متى كانت الضفة وغزة متصلتين؟ لم يحدث ذلك إلا سنوات قليلة عندما فُتِح الممر الآمن عام ١٩٩٨م بقيود مشددة تتضمن الأفراد وليس البضائع، وينحصر الفتح بين الثالثة عصراً والسابعة مساءً، مع إجراءات أمنية تعسفية وتصاريح.. إلخ، وكانت الحركة في غالبها تسير في اتجاه واحد من غزة إلى الضفة بغرض التسلل إلى داخل الخط الأخضر للعمل[٢].

٣ - الكونفيدرالية مع الأردن... قبل الدولة أم بعدها؟

«المؤشرات تتراكم ببطء، بالتنقيط، ولكن لم يعد ممكناً الخطأ في تشخيصها: الخيار الأردني لحل النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني يعود لاحتلال مكانة شرف على

---

(١) طلعت رضوان، مقال: المشروع الصهيوحمساوي لاحتلال سيناء، مختارات إسرائيلية ٢٠٠٨م.
(٢) انظر: الفلسطيني التائه، ص١٢٩ - ١٣٠.

طاولة المباحثات»[1].

وبينما حَلم نتنياهو ذات يوم بأن يضم الأردن إلى «إسرائيل الكبرى»[2]؛ فإن آرئيل شارون - وكلاهما ليكودي - كان رافضاً لتوقيع اتفاقية سلام مع الأردن ولم يصوت لصالحها في الكنيست، وعبر عن ذلك بالقول: «لم أسافر للمشاركة في احتفال في وادي عربة على الرغم من توقي لذلك، فالأردن هو الدولة الفلسطينية القائمة حالياً ولا يجوز إقامة دولة فلسطينية أخرى إلى جانبه»[3].

لكن المطروح حالياً ليس كما يتصور شارون بالضبط؛ حيث يوجد تعديلات طفيفة، فالنظر إلى الأردن على أنه «فلسطين» غير مقنع ولا يقدم تحريكاً سياسياً، وما يقال اليوم هو إقامة اتحاد كونفيدرالي بين أجزاء الضفة الغربية التي سينسحب منها الكيان، وبين الأردن «أحد الحلول الممكنة هو إنشاء إطار سياسي مشترك تكون الصدارة فيه للأردن، لكن يُحتفظ للفلسطينيين بقدر كبير من الاستقلال الذاتي بإدارة شؤونهم»[4].

وقوة الدفع الأساسية لهذا المشروع كما في سابقيه: حماس، أو بالأحرى فوز حماس في الانتخابات، وسيطرة حماس على غزة، واحتمال فوز حماس في أي انتخابات قادمة... «مصدر إحياء فكرة الاتحاد الكونفيدرالي بين الأردن وفلسطين خوَّف مقرري السياسات في الأردن من تغلغل الصراعات بين فتح وحماس إلى داخل الأردن. أضاءت الحرب الأهلية في قطاع غزة مصباح تحذير أحمر في عمان»[5].

---

(١) شموئيل روزنر، هآرتس، ٤/ ٧/ ٢٠٠٧م، مقال: الخيار الأردني، مركز الأسرى.

(٢) إسرائيل.. الرؤساء، ص١٢٨.

(٣) الأحزاب الإسرائيلية، ص١٨٣.

(٤) رؤبين بدهتسور، هآرتس، الأسرى، ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٧م.

(٥) السابق.

ويوجد تشوش قليل فيما يتعلق بموقف الأردن؛ فمن حيث التاريخ صوت مجلس النواب الأردني عام ١٩٥٠م على ضمِّ الضفة إلى الأردن، ولكن هذا القرار أُلغي لاحقاً في الثمانينيات، أما حالياً فالمصادر العربية تؤكد رفضه لأساس هذه الفكرة، وأن النظام الأردني يعارض إقامة أية علاقة اتحادية مع الضفة الغربية[١]، وأن «الأردنيين يعتبرون أن الحديث عن هذا الأمر – حتى مجرد حديث – هو مؤامرة عليهم وهو لا يخدم إلا مؤامرة التوطين والوطن البديل»[٢].

ولكن المصادر الإسرائيلية تقول: إن نخبة سياسية أردنية «تتجول في العالم وتطلق بالونات اختبار، من أجل أن تفحص ردود زعماء العالم والفلسطينيين على فكرة الاتحاد الكونفيدرالي الأردني – الفلسطيني»[٣]. ويتحدث جيورا إيلاند عن «مُحَفِّز جديد أسهم في العودة القوية لهذا الطرح وهو صعود حماس، واستيلاؤها على الحكم في غزة، إذ بات الأردن متخوفاً من إمكانية سيطرة حماس على الضفة الغربية إذا ما قامت دولة فلسطينية مستقلة كما حدث في غزة، لا سيما أن صعود حماس قد اقترن بنمو تأثير الإخوان المسلمين في المملكة الأردنية»[٤]. ويشير إيلاند إلى تفاعل هذا الموضوع في أوساط المثقفين الأردنيين «بدأ عددٌ من المفكرين الأردنيين

(١) هاني الحسين عضو اللجنة المركزية لفتح، والمستشار السياسي السابق لأبي مازن، صحيفة الحقائق، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٧م.

(٢) صالح القلاب، مقال: بعد أحداث غزة، هل تعود مصر إلى القطاع والأردن إلى الضفة الغربية؟ الشرق الأوسط، ٣١/ ١/ ٢٠٠٨م.

(٣) رؤبين بدهتسور، هآرتس، الأسرى، ٢٤/ ٧/ ٢٠٠٧م.

(٤) من عرض لدراسة الجنرال المتقاعد جيورا إيلاند رئيس المجلس الأمن القومي في الكيان، «إعادة التفكير في حل الدولتين» إصدار: معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، موقع تقرير واشنطن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨م.

يروجون لفكرة ضم الضفة الغربية إلى الأردن بوصفها سبيلاً وحيداً لتقويض أي تحالف محتمل بين حماس في الضفة الغربية، والفلسطينيين في عمان الذين باتوا يشكلون أغلبية في الأردن»[١].

وعلى الجانب الفلسطيني فإن حماس لا تؤيد مبدأ الفصل بين الضفة وغزة بضم كل منهما إلى دولة عربية مختلفة، فهذا يتناقض تماماً مع ثوابتها المعلنة، ويزعم إيلاند أن من يصفهم بالفلسطينيين المعتدلين يفضلون العيش تحت نظام أردني بدلاً من حماس، أما السلطة فهي فكرة الاندماج قبل قيام الدولة الفلسطينية، لكن بعد ذلك يمكن أن تقرر الانضمام إلى الأردن من عدمه، وهو ما يمكن فهمه في إطار عدم رغبة الحركة في خسران السلطة؛ حسب إيلاند[٢].

---

(١) السابق.

(٢) السابق.
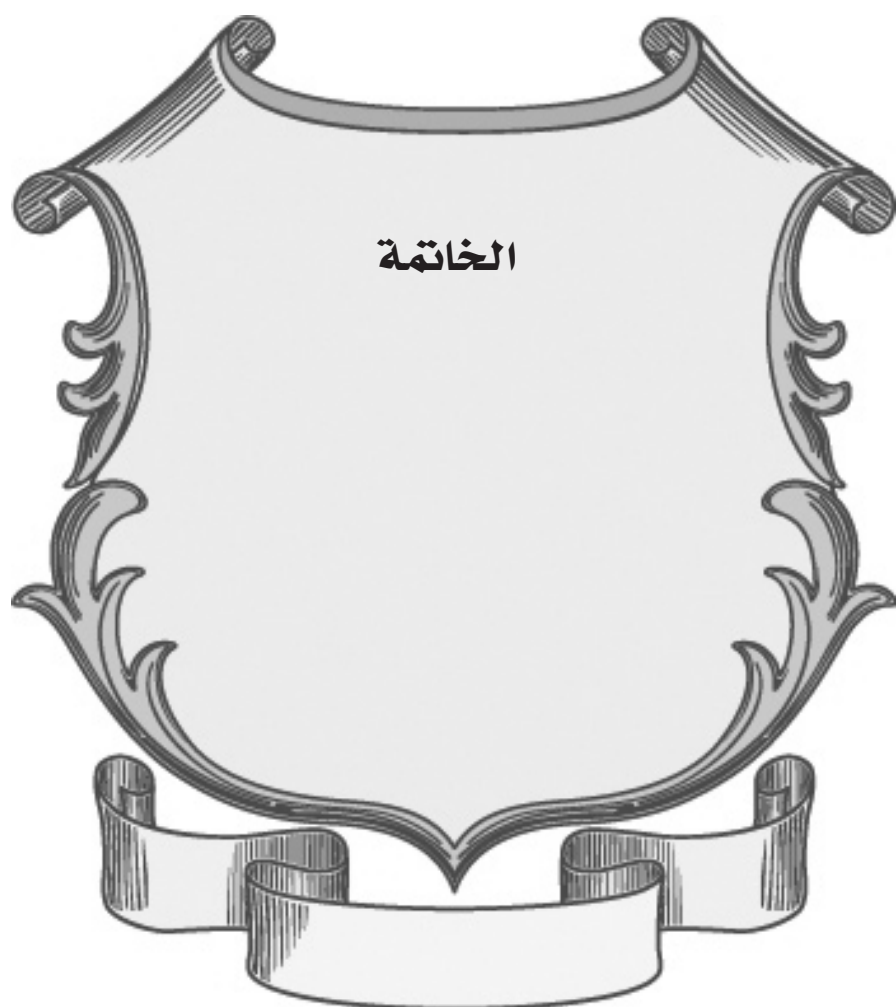
الخاتمة

الخاتمة:

تَبَيَّن في الفصل الأول العوامل الستة التي تحدد شكل العلاقة بين حركة حماس والكيان الصهيوني وطبيعتها وربما مستقبلها، وثلاثة من هذه العوامل ترتبط بالخلفية الصهيونية الدينية والسياسية، وهي: التأصيل الديني للصراع، والعداء للعرب والمسلمين، وتبني القوة بوصفها خياراً إستراتيجياً.

والعوامل الثلاثة الأخرى ترتبط بحركة حماس، وهي: المقاومة، والمشروع الإسلامي، روفض الاعتراف بالكيان.

ومن خلال قراءة التفصيلات الواردة في كل عنصر يمكن التوصل إلى رؤية تحليلية بأن العوامل الثلاثة الأخيرة تحكم العلاقة إلى درجة كبيرة، وهي العوامل القابلة للتغير بحسب قوة تمسك حركة حماس بها بوصفها ثوابت عقدية وسياسية للقضية الفلسطينية، فكلما تراخت الحركة في التمسك بهذه الثوابت كلما تقلصت المسافة الفاصلة بينها وبين الكيان، وفي حالة الافتراض الجدلي بتلاشي هذه العوامل الثلاثة فإن المسافة بين الحركة والكيان سوف تتضاءل إلى حدها الأدنى، ولكنها لن تتلاشى أبداً، بالنظر إلى العوامل الثلاثة المتعلقة بالكيان، والتي تؤكد كل المؤشرات

على صعوبة - إن لم يكن استحالة - تراجعهم عنها.

هذه النتيجة واضحة بقوة في موقف الكيان من حركة فتح التي تنازلت عن المقاومة واعترفت بالدولة الصهيونية، كما أنها تتبنى مشروعاً عَلْمانياً بالأساس، لكن لا تزال العوامل الأخرى فاعلة ومؤثرة بقوة في تحديد شكل العلاقة وطبيعتها بين الكيان وفتح.

ومن المهم جداً إعادة التأكيد على تأثير الدين في الصراع من الجانب الصهيوني، وأن عَلْمانية أغلب الأحزاب وأقواها لا ينبغي أن تشتت الأنظار عن هذا العامل، ومن المفيد اقتباس ما أورده «دليل إسرائيل ٢٠٠٤م» حول إشكالية الاختلافات بين الأحزاب العَلْمانية والدينية في الكيان: «الحركة الصهيونية ثم إسرائيل لم تشهدا عملية عَلْمنة حقيقية، ومن ثم فصل الدين عن الدولة، لكنهما قاومتا المحاولات التي سعت لصبغ الدولة المستحدثة على أسس دينية، فلدى انطلاق الحركة الصهيونية كانت الأغلبية العظمى من قاعدتها عَلْمانية، لكن طرحها القومي استند إلى التراث الديني اليهودي الذي وظفته في خدمة أهدافها بشكل انتهازي»[١].

وفي الفصل الثاني بَيَّنَت المحاور الخمسة المذكورة الآلية التي تتحكم في العلاقة بين حماس وبعض الدول العربية، وهي: عقدة الإخوان المسلمين، دبلوماسية التنازلات، التحالفات البينية والخارجية، المحور الإيراني، رُهاب ما بعد خيار الدولتين.

وتفيد الرؤية التحليلية لهذه المحاور ما يلي:

---

(١) دليل إسرائيل، ٢٠٠٤م، ص٧.

١- هناك عوامل من الصعب تراجع تأثيرها أو تلاشيها على الأقل في الحقبة الراهنة، مثل: انتماء حماس للإخوان المسلمين والطابع الإسلامي لمشروعها.

٢- ليس كل العوامل فاعلة بالدرجة بنفسها من التأثير مع كل الدول العربية، فمع مصر على سبيل المثال يقفز عامل «الانتماء للإخوان وأسلمة النظام» إلى أعلى القائمة يليه التحالفات بما فيها اتفاقية السلام، بينما يتراجع تأثير هذا العامل بالنسبة للسعودية التي تتبنى نظاماً إسلامياً، ومن ثم لا يؤثر عليها سلباً أن ترفع جهة ما شعار الحكم بالإسلام، لكن أهم عامل في الرؤية السعودية هو: المحور الإيراني؛ لما له من تداعيات خطيرة على الأمن القومي لدول المنطقة.

٣- بعض العوامل تثير قلقاً عربياً مقبولاً وتحتاج إلى تحديد موقف من قبل حماس، مثل: المحور الإيراني، وقضية إلحاق القطاع بمصر والضفة بالأردن.

وتتعدد المقاربات التي يمكن من خلالها تَلَمُّس مسار حماس في المرحلة المقبلة، فهناك مقاربة «حزب الله اللبناني» بالنظر إلى كون حماس استفادت من أداء الحزب العسكري والسياسي، فهل يستمر الاقتباس ليصل إلى التطور السياسي الأخير للحزب، وبعبارة موجزة: هل يمكن أن تدخل قطر في مرحلة ما على الخط لتُدَشِّن مصالحة بين فتح وحماس على النسق نفسه الذي حدث في لبنان؟

حسب هذه المقاربة سوف تظل حماس تجمع بين السياسة والمصالحة والمقاومة دون أن تفرق بينهم، وسيظل احتفاظها بسلاحها وجناحها العسكري أمراً ثابتاً لا يخضع للتفاوض حتى وإن توقفت عمليات المقاومة سنوات متتالية كما هو الحادث مع حزب الله الآن؛ مع التحفظ على تسمية أدائه العسكري مقاومة.

مقاربة ثانية تعتمد على أجنحة أخرى للإخوان المسلمين سلكت مسارات مختلفة في تعاملها مع الاحتلال والنظام الحاكم، فهناك الحزب الإسلامي العراقي الذي انطلق من رؤية تتيح التعاون مع الاحتلال الأمريكي في إنشاء نظام سياسي جديد في العراق، فشارك الحزب في مجلس الحكم المشكل في بداية الاحتلال ثم في جميع المؤسسات السياسية اللاحقة.

تجربة أخرى للإخوان في سورية، حيث اصطدمت الجماعة مع النظام «النُّصيري» صداماً عسكرياً أسفر عن مذبحة لأنصار الجماعة وعائلاتهم في عدة مدن، أبرزها: حماة، ولم تقدم الجماعة تنازلات كبيرة للنظام ولا تزال تعمل من الخارج حتى الآن.

مقاربة ثالثة، وهي الأخطر «المقاربة الفتحاوية».

توجد أوجه تشابه كثيرة بين مسار فتح ومسار حماس؛ من حيث النشأة في إطار المقاومة: حركة التحرير الفلسطينية «فتح»، حركة المقاومة الفلسطينية «حماس».

سلكت فتح المسار التالي: المقاومة هي الخيار الأول - تقديم عروض سلام مشروطة - تنقل قيادات الحركة في الخارج من دولة إلى دولة بسبب تذبذب العلاقات - فتح حركة كبيرة تتحالف مع حركات أصغر- التعرض لضغوط دولية وعربية مشددة للقبول بالسلام والاعتراف بالكيان - الاعتراف بالكيان وتوقيع اتفاق الحكم الذاتي - التحول في اتجاه قمع فصائل المقاومة.

هذه المراحل - قبل عتبة الاعتراف - مرت بها حماس، لكنها لا تزال مصرة على الصمود دون اعتراف بالكيان الصهيوني، مع ذلك توجد تخوفات من تحول

التهدئة طويلة الأمد إلى التزام ضمني من حماس بضبط أعمال المقاومة أو وقفها، وهو ما يجعل الحركة بالتدريج تدخل في مواجهات مع الرافضين لأي تهدئة مع الكيان الصهيوني، وهذه الوضعية ذات مسار دائري مغلق: تنشأ الحركة في ميدان المقاومة، وعندما تزداد قوتها تبدأ في البحث عن مكاسب سياسية، ويدفعها الحصول على المكاسب السياسية إلى تحجيم العمل الميداني، ومن ثم يصبح المجال مهيأ لظهور فصيل آخر يرفض السياسة ويؤيد المقاومة. . وهكذا. . .

ويمكن ملاحظة بعض الفروقات التي تجعل نموذج حماس مختلفاً عن فتح ومن ثم ليس بالضرورة أن يتشابه مسارا الحركتين في جميع المحطات، وليس محتماً أن تسقط حماس في المسار الدائري المغلق ذاته الذي بدأته فتح:

١- البعد العقدي والذي يظهر تأثيره في اعتماد المرجعية الشرعية وفي تبلور الأهداف بصورة أكثر وضوحاً بعيداً عن المطامع الشخصية التي أرهقت فتح.

٢- حماس تتسم بمستوى أعلى من المرونة يمكنها من الاستفادة من أخطائها؛ لأسباب؛ فمثلاً: القيادة التشاورية في مقابل القيادة الديكتاتورية لفتح في حقبة عرفات.

٣- النقاء الداخلي ونظافة اليد والمصداقية التي تميز حماس مقارنة بفتح.

٤- تماسك بنية الحركة ضد أي احتمالات للانشقاق.

وأما المقاربة الرابعة فتعتمد على مسيرة حماس نفسها، كيف تعاملت مع الأزمات والضغوط التي واجهتها من قبل في مراحلها المختلفة؟

إن تاريخ الحركة يكشف عن مستوى من الثبات لا يخلو من واقعية ومرونة

في مواجهة التطورات، بمعنى أدق: ثبات يفرق بين الإستراتيجي والتكتيكي، وهو موقف غاية في الصعوبة كون الحركة تواجه ثلاثة مستويات من التناقض عليها أن تتعامل معها:

أولاً: التناقض الداخلي الذي يلزمها بالجلوس للتفاوض مع فتح وهي تعلم أن قادتها يعقدون مجالس أخرى لمناقشة كيفية القضاء على الحركة.

ثانياً: التناقض العربي الذي يجعلها تتباحث مع دول عربية تعلم أنها لا ترى بأساً في سقوط حماس، ودول أخرى تحتضنها بينما تعادي من هم على منهجها الفكري نفسه.

ثالثاً: التناقض الدولي الذي يرى الذبابة في عين اليهودي ولا يرى الجذع في عين الفلسطيني.

وعند التأمل في مسار حركة حماس نجد أن أهم المنعطفات التاريخية في مسيرتها لم تكن متوقعة من قبل ولا أعلمُ أحداً توقعها قبل حدوثها بفترة كافية، ومن أبرزها في العقد الأخير: المشاركة السياسية في انتخابات لا تزورها فتح ولا تعرقلها «إسرائيل» - الفوز الساحق في الانتخابات - السيطرة على غزة وإقصاء عناصر فتح واستمرار ذلك لما يقرب من عامين حتى الآن.

أدَّت عدة عوامل متشابكة إلى تفتت الانتماءات السياسية للشعب الفلسطيني، واستغل الصهاينة هذا التفتت في عرقلة «مسيرة السلام».

وفي العقود الأخيرة ازداد الوضع تدهوراً بحيث إن التوافق الفلسطيني بات حلماً للمهتمين بالقضية الفلسطينية، لكن في انتخابات ٢٠٠٦م تحقق أول إجماع

فلسطيني مؤكد دون شك أو لَبْس، عندما اتفق ما يقرب من ثلثي الفلسطينيين على اختيار حماس لتمثلهم في المجلس التشريعي والحكومة، وهو ما يجعل توجيه النقد إلى حماس بأنها «شَقَّت» الصف الفلسطيني مجرد دعوى لا برهان عليها، فكيف تتهم بشق صف اجتمع عليها؟ إن الأَوْلى بهذا الاتهام هم من استمرؤوا القبول بقيادة حماس ولم يستطيعوا مقاومة إغراء السلطة.

ويحتاج الواقع الفلسطيني إلى عملية «إعادة تفكيك» لمفرداته ومصطلحاته ومسلَّماته، وفي مقدمتها ما يدور حول فصل غزة عن الضفة واتهام حماس بالانقلاب.

هذه التهم تقلب الحقائق، فكيف يُفصل بين شِقَّين لم يتصلا من قبل إلا فترة وجيزة عبر ممر سبق الحديث عنه؟ وكيف تنقلب حماس على سلطة «مقلوبة» من الأساس ولا تملك من أمرها شيئاً؟

إن قرارات ومقررات منظمة التحرير والمجلس الوطني الفلسطيني السابقة تنادي بإقامة الدولة الفلسطينية على أي جزء محرر من الأراضي المحتلة. وبالنظر إلى الواقع أي المناطق التي تستحق وصف «التحرير» أو «الاستقلال» ولو جزئياً؟ لو طبقت هذه القرارات بحذافيرها لكان من حق حماس فعلاً أن تؤسس الدولة في غزة، ولكان حتماً على سلطة الضفة أن تكون تابعة لها.

نختم بكلمتين حول ميثاق حماس الذي يؤرق الكثيرين، لكن ما يحزن أن نجد بعض اليهود يثقون في تمسك حماس بميثاقهم، بينما ينتقد مثقفون عرب هذا الميثاق ويعدّون أن حماس على طريق التخلي عنه.

المثال الأول: المعلق السياسي المتعصب ضد حماس «بن كاسبيت» كتب في معاريف يقول: «هذا الميثاق المتطرف لحماس، المُفَصَّل في كل مبادئه ومواعظه التي يروج لها.. لا يمكن تحريكه.. يدور الحديث عن عقيدة جامدة. دينية. وعليه؛ فان مطلب الحديث مع حماس عديم الأساس في الواقع.. حماس يجب سحقها. ليس أقل من ذلك»(١).

المثال الثاني: ما كتبه الأكاديمي خالد الحروب ضمن كتابه الذي صدر باللغة الإنجليزية في لندن «حماس، دليل المبتدئين»، يقول الحروب: إن الميثاق كتبه «فرد وعُمِّم دون مشورة أو إجماع أو تنقيح. لقد كان مُعِدّ الميثاق من الحرس القديم في حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة، وهو من المنقطعين كلياً عن العالم الخارجي»(٢).

هذا «المنقطع» عن العالم الخارجي «الملوث»، «القابع» في العالم الداخلي «النقي»؛ لا يزال ميثاقه صامداً حتى الآن؛ لأنه صاغه في جو النقاء لا التلوث، فبقي صامداً في وجه من يكرهونه من الصهاينة، ومن يعدونه من «الحرس القديم» من العرب.

إن الذين يريدون أن يصلوا بحماس إلى اللحظة التي يقف قائدهم فيها بجوار رئيس أمريكي ورئيس وزراء يهودي في تكرار لذلك المشهد المؤلم في ذاكرة العرب، عندما يمد الصهيوني يده ليصافح يد فلسطيني ربما يكون قد قتل أباه وأمه، وهو يبتسم ابتسامة يهودية معروفة منذ الأزل، لِمِثل هؤلاء نورد لهم كلام هاني الحسن عضو اللجنة المركزية لفتح الذي يقول: «إذا ابتسم الأعداء لنا فعلينا أن نتساءل أي حماقة

---

(١) معاريف، ٤/ ١/ ٢٠٠٩م، مركز الناطور.
(٢) إسلام أون لاين، ١٢/ ٧/ ٢٠٠٧م.

ارتكبنا؟»[١] .

أليس رب العالمين من خلقهم؟ فهو يقول عنهم : ﴿ **وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [**البقرة** : ١٢٠] .

(١) صحيفة الحقائق، ٢١/ ٧/ ٢٠٠٧م .

المراجع

المراجع

أولاً: الكتب:

١ - فارع أحمد غرايبة، الأحزاب الإسرائيلية ودورها في صنع السياسة الخارجية، دار عمار، عَمّان - الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٢ - مارك فرّو، الاستعمار الكتاب الأسود (١٦٠٠ - ٢٠٠٠م)، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

٣ - إسرائيل دليل عام ٢٠٠٤م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ٥/ ٢٠٠٤م.

٤ - د. ممدوح حسنين، الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري (١٢٧٠ - ١٣٩٠م)، دار عمار، عَمّان - الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

٥ - بسام أبو شريف، كتاب ياسر عرفات، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٢/ ٢٠٠٥م.

٦ - الفريق الركن الدكتور: محمد فتحي أمين، موسوعة أنواع الحروب، دار الأوائل، دمشق - سورية، الطبعة الأولى ١/ ٢٠٠٦م.

٧ - مذكرات الشيخ عبد الحميد السائح، فلسطين لا صلاة تحت الحراب، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية ٧/ ٢٠٠١م.

٨ - بنيامين نتنياهو، مكان بين الأمم إسرائيل والعالم، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

٩ - محمد حسنين هيكل، كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الأول: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، دار الشروق، القاهرة - مصر، الطبعة العاشرة ١١/ ٢٠٠١م.

١٠ - محمد حسنين هيكل، كتاب المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الكتاب الثاني: عواصف الحرب وعواصف السلام، دار الشروق، القاهرة - مصر، الطبعة الثامنة ١١/ ٢٠٠١م.

١١ - د. صفا محمود عبد العال، تربية العنصرية في المناهج الإسرائيلية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى ١/ ٢٠٠٥م.

١٢ - يوسي ميلمان، الإسرائيليون الجدد مشهد تفصيلي لمجتمع متغير، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن.

١٣ - منير العكش، تلمود العم سام الأساطير العبرية التي تأسست عليها أمريكا، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ٧/ ٢٠٠٤م.

١٤ - فرانسوا بورغا، الإسلام السياسي في زمن القاعدة، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

١٥ - كولن تشابمن، أرض الميعاد لمن؟ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي المستمر، العالمية للكتاب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١٦ - ياسر الزعاترة، الظاهرة الإسلامية قبل ١١ أيلول وبعده تجارب وتحديات وآفاق، الدار العربية للعلوم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١٧ - جايمس بتراس، سطوة إسرائيل في الولايات المتحدة، الدار العربية

للعلوم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

١٨ – د. أسامة جمعة الأشقر وحسن عادل الرفاعي، (إسرائيل) الرؤساء رؤساء الكنيست رؤساء الحكومات منذ الإنشاء وحتى ٢٠٠٦م، دار الأوائل، دمشق – سورية، الطبعة الأولى ٧/ ٢٠٠٦م.

١٩ – دومينيك فيدال، خطيئة إسرائيل الأصلية المؤرخون الجدد الإسرائيليون يعيدون النظر في طرد الفلسطينيين، الدراسات الفلسطينية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٥/ ٢٠٠٢م.

٢٠ – إيلان شاحر، الحريديون والمجتمع والسياسة في إسرائيل، دار كنعان، دمشق – سورية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٢١ – كاثلين كريستسين، فلسطين في العقل السياسي الأمريكي، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٣م.

٢٢ – عماد عبد الحميد الفالوجي، درب الأشواك حماس الانتفاضة السلطة، دار الشروق، عمان – الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٢٣ – د. عبد الوهاب المسيري، مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق – سورية، الطبعة الأولى (إعادة) ٢٠٠٣م.

٢٤ – إدوارد كورنيش، الاستشراف مناهج استكشاف المستقبل، الدار العربية للعلوم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

٢٥ – خالد الحروب، حماس الفكر والممارسة السياسية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية ٩/ ١٩٩٧م.

٢٦ – كامل الشريف ومصطفى السباعي، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية.

٢٧ – د. جمال البدري، السيف الأحمر دراسة في الأصولية اليهودية المعاصرة، دار الأوائل، دمشق – سورية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٢٨ – ساري حنفي وليندا طبر، بروز النخبة الفلسطينية المعولمة المانحون والمنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية المحلية، مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

٢٩ – ليتيسيا بوكاي، الفلسطيني التائه الانتفاضة تأكل أبناءها، قدمس للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٢/ ٢٠٠٦م.

٣٠ – د.حسن محمد وجيه، مقدمة في علم تفاوض الاجتماع السياسي، سلسلة عالم الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى ١٠/ ١٩٩٤م.

٣١ – د. إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة.

٣٢ – د.عبد الحي زلوم، أمريكا بعيون عربية، المؤسسة العربية للدراسات النشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

٣٣ – خليل أحمد خليل، الكوميديا السياسية وجوه في مرآتي، المؤسسة العربية للدراسات النشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

ثانياً: مواقع الإنترنت:

١ - مركز الأسرى للدراسات والأبحاث الإسرائيلية www.alasra.ps

٢ - مركز الناطور للدراسات http://natourcenter.com

٣ - مركز المعلومات حول الاستخبارات والإرهاب

www.terrorism-information.com

٤ - يديعوت أحرونوت http://www.arabynet.com

٥ - صحيفة القدس الفلسطينية www.alquds.com

٦ - موقع الأوان www.alawan.com

٧ - موقع عرب www.alarab.co.il

٨ - رويترز http://ara.reuters.com

٩ - الشرق الأوسط www.asharqalawsat.com

١٠ - صحيفة الاتحاد الإماراتية www.alittihad.co.ae

١١ - إسلام أون لاين www.islamonline.net

١٢ - فلسطين اليوم www.paltoday.com

١٣ - جيروزاليم بوست http://ar.wordpress.com

١٤ - موقع الجمل www.aljaml.com

١٥ – موقع تقرير واشنطن www . taqrir . org

١٦ – مركز الأهرام للدراسات http : / /acpss . ahram . org . eg

١٧ – موقع صامدون www . samidoon . com

١٨ – مختارات إسرائيلية

http : / /acpss . ahram . org . eg /ahram /20011 /1 / /CIsr0 . htm

١٩ – صحيفة الحقائق www . alhaqaeq . net

٢٠ – مركز الإعلام العربي www . arabinfocenter . net

٢١ – مؤسسة كارنيجي www . carnegieendowment . org

٢٢ – صحيفة الحياة www . daralhayat . com

٢٣ – الجزيرة نت www . aljazeera . net

الموضوع	الرقم